يوسف

ويوسف بن يعقوب بن إسحٰق . وإسحٰق بن إبراهيم ، عليهم السلام وكلهم من بابل . وحتى الذى يهجر بابل ، لا يلبث أن يعود إليها .

* * *

وبابل منبع الأحلام ، ومزرعة الروحانيات ؛ وعجائب الدنيا أهمُّها برج بابل ، والحدائق المعلقة ، والسحر والسحراء فى بابل .

« وما أُنزل على الملَـكَيْن ببابل ، هاروت وماروت ، وما يُعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تـكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » .

وبابل ، التى درج منهـا إبراهيم ، والتى عاش فيها إسحٰق ، وخلَّف فيها ابنه يعقوب ، قبل أن يرحل ، ووصَّى ابنه ، أن يرجع إلى أخواله فى بابل ليزوجوه ، وليسندوه ويعزّزوه .

* * *

ومن بابل ، رجع يعقوب إلى الشام ، بزوجتين أختين ، وجاريتين ، وخلَّف من هاتين ، وهاتين ، اثنى عشر ولداً .

* * *

وكان ألطفهم وأجملهم ، جمالا فتَّاناً ، ولده يوسف ، فـكان أبوه يعقوب يحبه ، ويحتضنه ، ويشغل به كل وقته ، وينصرف به عمن سواه

حتى تحركت نفس الأخوة ، ودبت الغيرة بين الضّرة والضرائر ، والأخ والأخوة ، وتفتحت الأعين ، وابتدأت المكايد .

* * *

وأصبح يوسف ، يقص على أبيه رؤيا ، رآها فى منامه : « يا أبت ، إنى رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » .

وأبوه يعقوب ، طول عمره فى الأحلام ، وتفسير المنام ، فليست الأحلام غريبة لديه ، ولا تفسيرها صعباً عليه ، فقال ليوسف :

ومن يكون يا ولدى يوسف ، الأحد عشر كوكباً ، غير إخوتك الأحد عشر ؟ ومن يكون الشمس والقمر ، غير أمك وأنا ؟

تعبير رؤياك يا بنى ، أن الله سيسعدك ، ويعلى قدرك ، حتى يكون إخوتك ووالداك فى احترامك وتعظيمك !

* * *

وهذه الرؤيا يا يوسف ، إذا سمعها إخوتك ، فسيغارون منك ، والغَيْرة تحرق المحبّة ، وتُعمى عن الأخوّة وتدفع على تدبير المكايد ، وتنفيذ الخطط التى يرسمها الشيطان .

« يا بنى لا تقصصْ رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين » .

* * *

وسيختارك الله نبيًّا يا يوسف ، تهدى قومك ، وتأخذ بيدهم إلى طريق الله . وسيُتم الله نعمته عليك ، ويعلمك تفسير الأحلام ، وستعُم

هذه النعمة أهلك ، كما أتم الله نعمته على جدك إسحق ، وعلى جدك الأكبر إبراهيم .

* * *

وبدأت المكايد والمؤامرات ، بين الأخوة الحاسدين لأخيهم يوسف ، فاجتمعوا فى ندوة ، بعيداً عن أبيهم ، وقالوا : ليُوسف وأخوه ، أحب إلى أبينا منا ، ونحن عصبة ، إن أبانا لظالم فى إيثاره وتفضيله هذين الولدين علينا ، وإنه باختضانهما ، وانصرافه عنا بهما ، سيضيع علينا كثيراً من عطفه ورعايته ، وسنحرم بسبب هذين الولدين خيراً كثيراً .

ولا نستطيع أن نجبر أبانا على حبنا ، أو أن يقسم حبه بالعدل بيننا ، فقد انشغل كل قلبه بحبهما ، والقلب إذا مال وحبّ ، سلانا وهجر .

* * *

والرأى ، أن نزيح هذا الولد يوسف من بين عينيه ، فنقتله ، أو نأخذه ونطرحه فى واد سحيق ، فتأكله سباعه ووحوشه ، فلا يعود يراه ، ولا يمضى زمن حتى ينساه ويسلوه ، ثم يعود إلى حبنا ورعايتنا .

والمؤامرات والمؤتمرون ، قد يكون فيهم واحد ، طيب القلب ، رحيم النفس ، رقيق الحس ، يقدّر عظم المسئولية ، فقال أخوهم الأكبر :

لا تقتلوا يوسف ، ففى القتل وحشية ، وجلبٌ للعار ، وعقوقٌ للأبوّة ، وإهدار للأخوّة .

إن كان لابد أنكم مصرون على إبعاد يوسف عن أبيه ، فلا تسجلوا

على أنفسكم جريمة القتل ، واقذفوا به إلى أقصى الأرض ، أو ألقوه في الجب ، في هذه البئر ، فإن مات ، كان موته بعيداً عن أعيننا ، وندعي أنه سقط وغرق فيها ، وإن عاش ونشله أحدٌ فسيذهب به إلى حيث لا رجعة .

* * *

وأعجب هذا الرأى ، الأخوة المؤتمرين ، وراق في أعينهم ، فأقرُّوه ، وزاد واحد منهم ، فقال : ونخلع عنه قميصه ، ونلطخه بالدم ، وندعي أن ذئباً أكله ، فلم يبق منه شيئاً إلا قميصه !

* * *

وتمت المؤامرة ، واستقر الرأى ، وبدءو ينفذون .

* * *

وذهبوا إلى أبيهم ، يتلطَّفون ويتخاضعون ، ويتصنَّعون التودُّد والحنان ، على يوسف الصغير المحبوب ، العزيز على أبيه ، وعلى إخوته جميعاً !

فقالوا : يا أبانا ، مالك لا تأمننا على يوسف ، وإنا له لناصحون ، وعليه محافظون .

إنه يا أبانا محتاج إلى الرياضة واللعب ، والرَّتع في الخلاء ، حيث الهواء ، والشمس الضاحية ، والفضاء الفسيح ، فيجرى دمه ، وتجود صحته ، ويزهو جماله ، ويمتد قوامه ، ويمتشق عوده ، ونحن حراسه ، وجنوده ، المحبون له ، المؤتمنون المحافظون عليه .

« أرسلْه معنا غداً ، يرْتع ويلعب ، وإنا له لحافظون » .

* * *

وقلب المؤمن دليله ، وفراسة الشيوخ ، قراءة فى وجوه الناس ، فقال : يا أولادى ، إننى أخشى ، أن أسمح لكم به ، وأرسله معكم ، فتنشغلوا عنه ، فيهجم عليه ذئب فيأكله وأنتم عنه غافلون .

* * *

قالوا : عارٌ علينا يا أبانا ، أن نكون عصابة فى مثل عددنا ، وقوتنا ، وأن يغلبنا ذئب ، فيأكل أخانا الجميل يوسف .

إننا إن غفلنا عنه ، وأكله الذئب ، نخسر أخانا ، ونحرم رضا أبينا وتسوء سمعتنا الطيبة فى أهلينا ونستحق لوم الناس علينا .

* * *

وأخذوا يوسف ، وساروا به ، وعين يعقوب تشيّعهم ، وقلبه يسابقهم ، وروحه معهم ، حتى غابوا عن عينيه ، ودخلوا فى الخلاء ، واتسع لهم الفضاء ، ووصلوا إلى الجب . إلى البئر .

واجتمعوا عليه ، على طفل جميل ، مُدلّل فى حجر أبيه ، وما رأى شدة فى معاملة ، ولا تعود خشونة ولا خصومة ، وقلبه برىء من كل كُرهٍ وضغينة .

ثم هو يرى هؤلاء العشرة ، يتألّبون عليه ، ويوسعونه شتما ولعناً وضربا ، ثم ينزعون عنه ثيابه ، ويمزقونها من على جسده إلا قميصاً ترجّاهم أن يتركوه عليه ، لعله يستره إذا عاش ، ويكفنه إذا مات .

وطرحوا أخاهم يوسف فى الجب المظلمة ، ويوسف مستسلم لقضاء الله ، فألهمه الله ، وأوحى إليه ، أن اصبر ، فسيأتى اليوم الذى يكرمك الله فيه ، ويرفع قدرك ، ويُخْوِج هؤلاء إليك ، فتواجههم بقسوتهم ، وهم لا يشعرون ولا يدرون ، ولا لحساب فى المستقبل يحاسبون .

* * *

وانقضى اليوم وهم يحسبون أنهم أراحوا أنفسهم من كابوس ، وأنهم أزاحوا صخرة كانت تسد عليهم باب أبيهم .

وما كان يوسف كابوساً ولا صخرة ، وإنما هى الغَيْرة ، ويابئس ما تفعل الغيرة !

* * *

وغابت الشمس كما غاب يوسف ، وهدأت نفوسهم ، كما يهدأ الليل ، وفكروا فى كلام يدخلون به على أبيهم ، فقالوا وهم يتصنَّعون البكاء كالنساء : يا أبانا ، اعذرنا ، فقد حدث مالم يكن فى حُسباننا ، ذهبنا نتسابق ، وأغرانا السباق واللعب ، حتى سهوْنا عن عزيزنا يوسف ، وكنا تركناه عند متاعنا وغدائنا ، فانقضّ عليه الذئب ، فأكله .

يا أبانا ، إننا لفى حسرة وألم ، وقد بكينا حتى انفطرنا ، على أخينا وحبيبنا يوسف . ويزيد حسرتَنا ، أنك تشكّ فينا ، وفى صدق كلامنا ، مهما حلفنا لك ، وإن لم تنفع الأحلاف والأيمان ، فالدليل على صدقنا و إخلاصنا قميصه هذا الذى مزقه الذئب ، ولطّخه بالدم .

فهذه أيْمانُنا ، وهذا دليلنا ، فماذا بقى علينا ؟

ياليته ياأبانا أبقى منه لحماً أو عظماً ، فكنا جئناك به ، ولكن الذئب الكاسر أجهز على لحمه وعظمه ، ثم لعق دمه ، وكاد يأكل قميصه ، لولا أن أدركناه !

* * *

ولكن أين هذا كله من قلب الأب ، المحطّم الآسى ، على ولده ، وعلى أعز ولد ، يطأطىء رأسه ، ويكفكف دمعه ، ويقول : ياأولادى : إن قلبى ليحس ، وإن روحى لتقول كلاماً غير هذا ، وإنه لا ذئب ، ولا دم ، وإنما هى النفس الأمّارة بالسوء ، والتدبير السيىء ، والغَيرة المتقدة ، وعقوق الأبوة ، وإهدار الأخوة !

اللهم صبراً جميلا ، ورضا واستسلاماً ، وعوناً وجلداً ، على كيدكم ، وسوء نيتكم !

* * *

ومرت قافلة من قوافل التجارة ، فاستروَحت المكان ، وحطّتْ تستريح ، وبعثوا الساقى بالدلو ، إلى البئر ليملأ دلوه ، وأدلى الدلو ، فتعلق به يوسف ، فلما رآه الساقى ، هلّل واستبشر ، وتفاءل بالخير ، وعجب أن تمنحه البئر ماء ، وغلاماً جميلا .

* * *

وقدمه للقوم ، فقالوا : ماعهِدْنا الآبار تهدى إلى الناس غلماناً ، ولابدّ أنها جريمة ، جريمة إخفاء هذا الغلام عن أهله ، وإننا إذا انتظرنا فى هذا

المكان ، حتى تنكشف الجريمة ، فسيضيع وقتنا ، بين التحقيق والتدقيق ، وربما نُسبت إلينا جريمته ، ولابد من أن نخفى هذا الولد ، وأن نحمل بضاعتنا ، ونشد رحالنا ، هيَّا يارجال إلى مصر ، بهذه اللُّقْية ، لنتخلص منها ، فنبيعها بثمن ، أىِّ ثمن ، لمن يرغب فيه ويشتريه .

* * *

وباعوه لعزيز مصر ، ورئيس حكومتها ، بثمن بَخْس ، دراهم معدودة وهم فيه زاهدون . ودخل به على زوجته الشابّة ، كمن يحمل أغلى هدية إلى زوجته ، ولـكنها فترت حين رأت الغلام ، وانطفأ لمعان وجهها ، وانجرحت عاطفتها ، فهذا دليل جديد على شوق الرجل إلى ولد ، وعلى أنها ليس لها ولد ، وهمَّت أن تقول كلاماً .

ولـكن زوجها عاجلها ، وسبق عليها ، وقال لها : ياعزيزتى : هذا غلام اشتريناه فأكرمى مَثْواه ، وقدِّرى جماله وصباه ، عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولداً ، يؤنس وَحدتنا ، ويُذهب وحشتنا ، ويملأ البيت علينا .

* * *

وعاش يوسف فى قصر العزيز ، بعد أن كان بالأمس فى الجب ، وعاش فى نعيم الملوك ، بعد أن كان يرعى الغنم فى إخوةٍ لا يحبونه فى المراعى والوديان .

وهدأت نفسه بهذه النَّقلة ، ونما جسمه ، واتسع فكره ، ونضج عقله ، ونضر شبابه ، وازدهر جماله ، وشعَّت فى جسمه حيويته .

ومنَّ الله عليه بسرٍّ من عنده ، فرعاه وتولاه ، وحفظه من نزوات الشباب ووسوسة الشيطان ، وزاده فضلا ، فعلمه تعبير الرؤيا ، وتفسير الأحلام .

واكتمل شبابه ، وامتلأ عودهُ ، واستطال قوامه ، وبانت فتنته ، وكلل الله نِعَمه عليه ، بالحشمة والوقار والاتزان ، وبالعلم الربّانى ، وبالثقافة الإلهية ، جزاء رضاه ، وإخلاصه للوزير الذى اشتراه وآواه ، وأكرم مثواه .

* * *

ويوسف غارقٌ فى التعلق بالله ، منصرفٌ عن كل شىء سواه .

وزُليخة زوجة العزيز غارقةٌ فى متابعة الشيطان ، يَلْفِتها إلى جمال الجسم فى يوسف ، ويصرفها عن جمال روحه ، ويفتنها فى غرامه ، ويصرفها عن أدبه واحتشامه .

ويوسف يصعد فى طريق الخير ، وزليخا تنحدر فى طريق الشيطان .

* * *

فهى تتابعه بالنظرات ، وترميه بألحاظ الجفون ، وتهمس بالآهات والتنهدات ، وتستلفت نظره بالتموُّج والتثنى ، وتستثير نفسه بإبداء الزينات والمفاتن ، وترمى شباكها عليه بكل ما فى وسعها من حيل ، ويوسف مشغول القلب بالله ، وفى خوف الله !

وهى تحسب أن انصرافه وهدوءه صدود وتمنُّع ، فيزداد هيامها ، وتحتدم سَوْرتها ، وتتأجج نارها ، ويتوهج لهيبها ، فيُجَنُّ جنونها ، وتغيب عن وعيها ، وتنسى قيمتها ، فتلتاع فى غلامها ، وتدعوه إلى نفسها ، وتراوده عن نفسه ، وتغلِّق الأبواب عليه ، وتستخدم قوتها فى إخضاعه ، والاستيلاء عليه .

* * *

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلّقت الأبواب ، وقالت : هَيْتَ لك » .

* * *

والإنسان : عقلٌ وعواطف ، وعواطف الشاب أكثر وأعنف من عقله ، ولكنَّ الله غلَّب عقله على عواطفه ، فرأى يوسف أن من الجحود والنكران ، أن ينسى جميل صاحب القصر ، وأنه آواه ورباه ، وأنه أفسح له حتى اكتمل فى وعيه وعقله وخلقه ، وأنه أنزله من نفسه منزلة الولد ، وأن هذه أصبحت منه بمنزلة الأم ، ولا ترتفع عين الولد فى أمه ، مهما تاهت فى ضلالها . وصاحب القصر قد ائتمنه على عِرضه وماله .

ويرى يوسف أن الله سبحانه قد ساق إليه كل هذا النعيم ، فكيف يجعل شكره فى معصيته ؟ وكيف يشكر صاحب القصر بهتك عرضه ؟ .

ورأى يوسف قدرة الله ، فاستحيا من الله ، فبرد جسمه ، واعتصم بإيمانه ، واستبدَّ فى اعتصامه ، والاحتفاظ بدينه وشرفه ، ولولا ذلك لانزلق مع الشيطان .

ولقد همَّت به ، وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه .

ويا قوة الله التى حفظتك يا يوسف ! ويا عين الله التى ما تنام عنك ! .

أىّ خُلُقٍ مهما سما ، وأى عزيمة مهما اشتدت ، وأى نفس مهما تحصنت ، لا تقع فريسة لهذا الإغواء والإغراء ، فى خلوة وتأجج وجنون ، لولا رعاية الله وعصمته ! .

والناس هم الناس ، وأبوهم آدم الذى انكبَّ من أجل ثمر فى شجر !

فما بالنا بشاب فتى عَزَب ، يعف عن أطيب فاكهة تلقى تحت رجليه ، فلا يسقط عليها عينيه ، بل يدوسها بقدميه ؟ .

* * *

ومنظر آخر ، منظر شاب استطاع أن يصد تيار الفتنة لحظة ، فما يصح له أن يقف فى وجه التيار ، فلئن قوى وصد التيار مرة ، فقد تخونه قوته ، وتفلت منه أعصابه ، فيهوى من قمة اعتصامه ، إلى سفح عواطفه ، إلى حضيض نزواته .

ورأى أن من الخير والحكمة ، أن يفر من وجه الشيطان ، وأن يهرب من مسرح الرذيلة ، ويخرج ناجياً بنفسه قبل أن تتعلق بها شِصُّ الشباك .

فجرى نحو الأبواب المغلَّقة يفتحها ، ورأت زليخا أنه سيفر من بين يديها ، قبل أن تُبْرِدَ غُلّتها ، وتُطفى ظمأها ، وأن الفرصة إن أفلتت فلن تعود

فجرت وراءه تناديه ، وتستعطفه بجمالها وأبهتها ، وقوتها ومالها ، ثم بدموعها ودم قلبها ؛ ولكن النفس متى صدَّتْ وجمحت ، فلن يكبحها كابح ، ولن يُلينها أو يكسرها أىّ قوة ، متى ارتكنت إلى قوة الله .

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تُقبل

ولحقت به قرب الباب ، فشدته من ثيابه فمزقتها ، فلم يلتفت إليها ، وفتح الباب ليخرج ، ولكن . . !

ولكن يا لهول ما رأى ! لقد رأى العزيز الحاكم ، واقفاً بالباب يتسمَّع !

« واستبقا الباب ، وقدّت قميصه من دُبُر ، وألفيا سيدها لدى الباب» . ما لكم فى هرج ومرج ؟ ماذا أرى ؟

مالك يا يوسف ؟ ومالك يا زليخا ؟ فسكت يوسف ، لأن الحق سيتكلم ، وتكلمت زليخا ، لأنها تخشى أن يظهر الحق .

* * *

وما أقوى المرأة على التمثيل ، وعلى النفاق ، وعلى تمكنها من أعصابها ؟ امرأة العزيز ، التى كانت منذ لحظة ، تتهاوى إلى أسفل مواطن الرذيلة ، ويكاد عقلها أن يفارقها إلى غير رجعة ، والشيطان قد لبس جسمها ، وأشعل نارها ، وأرخص عفافها ، وأهدر كرامتها ، فداست بقدمها شرفها .

تستطيع فى لمح البصر ، أن تسترد وعيها ، وتملك نفسها ، وتتمكن من أعصابها ، وتنتصب فى وقفتها ، وأن تُلْقى عارها على أكتاف غيرها ، وأن تتقمص مُسُوح العفاف والشرف ، وأن تقول لزوجها : إن غلامك هذا خائن حاول الاعتداء على عفتى وكرامتى ، وما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن ، أو عذابٌ أليم .

وتمثيل عواطف العُهْر فى أسفل صورة ، ثم تمثيل عواطف الطُّهْر فى أسمى صورة ، فى وقت واحد ، قوة لا تستطيعها إلا المرأة .

* * *

أما الرجل ، يوسف ، فقد صمدَ لهذه المفاجأة ، وثبت فى موقفه ، ولم تخنه أعصابه ، ولم ينفجر ثائراً لهذا التلوُّن البارع ، ولا هذه الجرأة الجريئة ، ولم يزد على أن قال الحق : هى راودتنى عن نفسى .

ولم يشرح ، ولم يَحُك ، ولم يفصح ، ولم يفضح ، وذلك فعل الكريم النبيل ! وكان موقفاً رهيباً ، بين الحق فى صمته وسكونه ، وبين الباطل فى عجيجه وضجيجه .

وليُحقَّ الله الحق ، ويُبطل الباطل ، دخل ابن عم هذه المرأة الفاجرة ، وعرف ما كان ، وسطع بريق الحق فى عينيه ، وطنَّ طنين الباطل فى أذنيه ، وغلب البريق على الطنين ، فنطق بالعدل ، وشهد بالصدق ، وفسَّر الموقعة ، وأدلى بالحجة : « إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل ، فصدقتْ ، وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ ، فكذبتْ ، وهو من الصادقين ، فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُرٍ ، قال : إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم » .

وأحسَّ العزيز بحَرَج الموقف ، وبخطورة الشُمعة ، وقدَّر أن الشدة ، لا تصلح علاجاً ، وأن من الحكمة إغضاء العين ، والانحناء للعاصفة .

فالتفت إلى الشاب الجرىء البرىء ، وقال : يا يوسف : أَعْرِضْ عن هذا ، وتسامحْ فى حقك ، فأنت أهلٌ لثقتنا فيك ، وأبعدُ من أن يتسرب الشك إليك .

وأنت يا زليخا : يا محطئة ! استغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين .

* * *

وتسرَّبَتْ الإشاعات ، ودوَّت الأقاويل ، وملأت المجالس والأندية ، وقال نسوة فى المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حُبًّا ، إنا لنراها فى ضلال مبين ، فلما سمعت بمكرهن ، وعذلهن ، وما يدور حولها

فى مجالسهن ، أرادت أن تدفع عن نفسها اللوم ، وتقطع ألسنة الغيبة ، وأن تجعل نساء المدينة يعذرنها ، ويخففن من نهشها ، فدبرت لذلك أمراً ، ودعتهن إلى وليمة عندها ، وغذاء فى قصرها ، وهيأت المكان ، وأعدت المقاعد الوثيرة والمتكآت المريحة ، والأرائك الفسيحة ، وقدمت لهن الفاكهة ، تفاحاً وكمثرى وأعدت السكاكين لتقشيرها .

ثم كانت المفاجأة . . . !

فاجأتهن ، بأن أطلعت عليهن يوسف ، فى شرخ شبابه ، واكتمال إهابه وفتنة جماله ، واعتدال قوامه ، ووجهه الوضّاح ، وورد خده الفوّاح ، وسحر عيونه ، وأسر جفونه ، وقوة روحه ، وسَبْي سكونه ، وجلال أدبه ، ورهبة احتشامه ، ونور طلعته .

والنساء بأسرهن الجمال ، ويسبيهن امتشاق القوام ، فوقعن كلهن فى أسره وسحره ، وذهلن عما فى أيديهن من فاكهة وسكين ، ورُحْن بلا وَعْى ، يُقطِّعن أيديهن ، وقُلْن فى شهْقة الوَلْهان : حاشَ لله ، ما هذا بشراً ، إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم ! رحمةً بها يا يوسف ! ورفقاً بفؤادها ، وحنانيك على قلبها .

إنك تقتلها بتأبِّيك واعتصامك ، وأنت غلامها وفتاها ، فلها ودادُك ووصالُك ، ولا لوم عليها ولا تثريب !

وانتصرت زليخا ، وأخذتها نشوة الانتصار ، وثملت بخمر المكيدة والإيقاع ، وازدهتها الأيدى المقطَّعة ، والدماء المنهمرة ، والفاكهة المضرجة ، والعيون الزائغة ، والأفواه الفاغرة ، والعقول الذاهلة ، لأول نظرة يُلقينها على شاب جميل .

وقالت : نظرةٌ واحدة ، قطَّعت الأيدى ، وأسالت الدماء ، وأذهلت العقول !

ولو طالت نظراتكن إليه ، وأقمْتُنَّ بين يديه ، لقطَّعْتُن القلوب عليه ، ولذبْتُنَّ شوقاً إليه ، وأهلكتنَّ أنفسكن بين يديه .

« فذلكنَّ الذى لُمْتُنَّنِي فيه ، ولقد راودْتُه عن نفسه فاستعصم . ولئن لم يفعلْ ما آمره ، ليسجَنَنَّ ، وليكونَنْ من الصاغرين » .

* * *

ويوسف كما هو يوسف ، ثابتٌ راسخ ، كثباته ورسوخه ، يوم أَلْفَيَا سيدها لدى الباب .

بل إنه اليوم أحوج إلى رعاية الله ، وحصانته وعصمته ، فلقد كانت واحدةٌ هائجة عليه ، واليوم واحدة ، ووحدات ، يُقطِّعْن أيديهن عليه ، ولا عاصم اليوم ، إلا عصمة الله !

* * *

وأدار لهن ظهره ، ورفع إلى السماء وجهه ، وبسط كفه ، ودعا ربه : فى هذه الساعة الحرجة ، ساعة الفتنة . فقال : « رب ، السجنُ أحبُّ إلىَّ مما يدعونَنِي إليه ، وإلا تَصْرِفْ عنى كيدَهنْ ، أصْبُ إليهن ، وأكُنْ من الجاهلين . فاستجاب له ربه ، فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم » .

* * *

وأحدثت هذه الدعوة ، وتلك الوليمة ، رجّةً فى المدينة ، وفضيحةً فى كل بيت ورجعتْ كل مدعُوّة ، ذاهلة تائهــةً مُتيَّمةً فى حب يوسف ، فاتن الأميرة ، وساحر الأميرات الفاتنات .

وخاف أهل المدينة الفتنة على نسائهن ، ورأى الوزير الخطير ، أن يَصُدَّ هذه العاصفة الجارفة ، بأن يُبعد يوسف عن أعين الهائمات المتيمات ، وأن يحتجزه فى سجن القصر ، لعل البُعد يُنسيهن يوسف ، ولعل السجن يُطفئ شُعلة جماله ، ويُذْوِى نضرة شبابه .

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوْا الآيات ، ليسجُنُنَّه حتى حين » .

* * *

ويوسف ، كان يدعو الله ، أن يُبَدِّله بحبهن سِجْناً ، وبقربهن بُعدا ، وبفضيحتهن سَتْراً بين جدران يخلُص فيها لعبادة الله .

* * *

وفى السجن ، أكرمه الله ، فأمدَّه بالعلم ، وزوده بالحكمة ، وألهمه تعبير الرؤيا ، وتفسير الأحلام .

* * *

ودخل معه السجن فتيَان ، سجينان آخران ، ولم يمض يومٌ ويومانِ ، حتى رأى الفتيان رؤيا فى المنام ، فأصبحا يقُصَّان ما رأيا على يوسف : قال أحدهما : إنى أرانى أعصر العنب ، وأقطِّرُه وأعتِّقُه فيكون أجود خمراً . وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خُبزاً ، تأكل الطير منه .

يا أخانا يوسف ، ما تأويل رؤيانا ، بالله عليك اصْدُقْنا ، وأَرِحْ خواطرنا ، لعل فيها الخير ، ولعل فيها فرجاً بعد شدة . وانفِكا كا من سجن ، فالسجن مقبرة الأحياء ، وشماتة الأعداء ! .

* * *

يا صاحبَيِ السجن ، أما أحدكما ، فسيُعْفى عنه ، ويشمله عطف الملك ، وسيُقرَّبه إليه ، فيكون ساقيه ، والمؤتمن على حياته ، وسيعلو ذكره ، ويسمو قدره .

وأما الآخر ، فسيثبت اتِّهامه ، وسيُقْتَلُ ويُصْلب ، حتى تأكل الطير من رأسه ، قُضِيَ الأمر الذى فيه تستفتيان .

* * *

وغلط يوسف غلطة ، ما كان ليقع فيها نبيٌّ ولا رسول .

وما كان ليقع فيها يوسف الذى أبت نفسه أن يجلس على عرش النساء ، وفى عفةٍ وكرامةٍ ، داس على قلوب الفاتنات الحسان ، وهو يخطر داخلا السجن ، طائعاً مختارا .

* * *

ولله حكمة فى أن يغلط يوسف ، حتى تكون لنا فيها موعظة وعبرة .

* * *

حاشاك يا يوسف ، أن تنسى ربك وإلٰهك ، وتطلب العون من إنسان كان بالأمس سجيناً معك ! .

هل استبْطَأْتَ رحمةَ ربك ؟ وهل ضَجِرْتَ من ابتلاء الله وامتحانه ؟ وإذا كنتَ ، وأنت النبى المعصوم ، تفزع من الابتلاء ، وتتشوّق إلى الخلاص ، وتستغيث بإنسان ، فماذا يصنع الذين ليسوا بأنبياء ، ولا أصفياء الرحمن ! .

« وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك » ! .

وكان أن أدَّبه الله ، وأنْسَى ذلك الإنسان ، فظل يوسف فى السجن بِضْع سنين . نعوذ بالله من غضب الله ! حتى الأنبياء ، لا يُعْفَوْنَ من غضب الله ! .

* * *

وإذا كانت لَفْتَةٌ واحدة ، التفت فيها يوسف عن ربه ، كان جزاؤه وتأديبه سبع سنين فى سجن مظلم ، فماذا يكون جزاؤنا وعقابنا ، وحياتنا كلها فى غَفْلةٍ عن ذِكر الله ، وعن الصلاة ، وعن تحرِّى ما أمر الله ، وفى الإغراق فيما حرّم الله ؟

لنا الله ! ربَّنا لا تؤاخذْنا إن نَسِينا ، أو أخطأْنا ، ربَّنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمِّلْنا ما لا طاقة لنا به ، واعفُ عنا ، واغفرْ لنا ، وارحمْنا ، أنت مولانا .

* * *

ولو يُؤاخذ الله الناس بما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

* * *

وشاء الله سبحانه ، أن يهيىء ليوسف أسباب العفو عن هذه الهفوة ، والإفراج عنه من هذا السجن ، وأن يجزيه على ما صبر واعتصم ، وأن يخرجه من السجن إلى كرسى الحكم ، وأن يضع فى يديه زمام الخلق ، وأن يُحكمه فى أرزاق الناس ، وأن يجعله أميناً على خزائن الأرض .

* * *

ويشاء الله سبحانه ، أن يُهيىء ليوسف الخلاص ، ومن نعمة الله على يوسف ، ألا يكون للوزير فضلٌ فيه ، وإنما كان المَلِكُ نفسه محتاجاً إليه .

* * *

وقال الملك : إنى أرى سبع بقراتٍ سِمَانٍ يأكلهُنَّ سبعٌ عِجَاف ، وسبعَ سنبلاتٍ خُضْر ، وأُخَرَ يابسات .

فهبَّ من أحلامه مذعوراً ، واستغاث بالمفسرين والعرَّافين ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلَّا يَخْرُصُون ، وقالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

وقال ساقى الملك : يامولاى ، لقد تذكرت ، تذكرت صاحبى فى السجن ، الذى بشَّرنى بعفوك منذ سبع سنوات ، إنه وحده يامولاى ، الذى يُنبئُنا بتأويل رؤياك ، ائذنْ لى يامولاى الملك ، أن أدخل السجن عليه .

واعتذر الساقى ليوسف من نِسيانه ، وسأله : يايوسف : أَفْتِنَا فى سبع بقرات سمان يأكلهُنَّ سبعٌ عِجَاف ، وسبع سنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابسات ، لعلى أرجعُ إلى الناس ، لعلهم يعلمون .

قال يوسف : ياصاحبى ، رؤيا ملككم هذه ، امتحانٌ كبير ، وحَذَرٌ حَذِير ، وخيرٌ كثير ، وشرٌّ مستطير ، ولا عاصم إلا الله القدير ، ولابد من تفكير وتدبير ، تُخْصِبُ الأرضُ سبع سنين ، وتقْحَطُ سبعَ سنين ، ثم يأتى بعد ذلك عام سَمِين . تزرعون سبع سنين دَأَباً ، فما حصدتم فذَرُوه فى سُنبله إلا قليلاً مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبعٌ شِدادٌ يأكلْن ما قدمتم

لهنَّ إلا قليلاً مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام ، فيه يُغَاثُ الناسُ ، وفيه يَعْصِرُون .

* * *

وعاد الساقى إلى الملك ، فخَشِىَ العاقبة ، وخاف على شعبه أن يَغْرَق فى النعمة ، ولا يدَّخر من يومه لغده ، ولا مِن يُسْره لعُسره ، فيهلك الناس أجمعون .

* * *

وقال الملك ائتونى به ، فلما جاءه الرسول ، كان يوسف كما كان هو يوسف ، لم يَخِفَّ ، ولم يَفْزَع ، ولم يستَخِفّه هذا الاستدعاء ، فإن النفوس الأبيَّة ، لا تذِل ولا تستخذى ، مهما استبدّ بهـا الزمن ، وأرهقها الظلم ، وما يزيدها ذلك إلا إيماناً واعتصاماً ، وقال فى عزة وأنَفَة : ارجعْ إلى ربك فاسأله ، ما بالُ النسوة اللاتى قطَّعْن أيديهن ، ونسين أنفسهن ، وبذلْن فى تحريضى على الشر جُهْدهن ، وناصَرْن أُختهن ، وعَذَلْنَنِي ولُمْنَنى فى هجرهن ، فهن صواحب الشيطان يا ساقى الملك ! والله أعلم بموقفى وموقفهن ، وهو ربى صاننى ، فصرف عنى كيدهن ، فما هِمْتُ بهن ولا بصاحبتهن وإن كنَّ أوقعننى فى السجن سبع سنين بظلمهن ومكرهن ، وأنا على هذا لسْتُ من الآسفين .

* * *

وعاد الساقى إلى الملك ، فأمر بجمعهن وقال : ما خطبكن إذ راودْتُنَّ يوسف عن نفسه ؟ قُلْن حاش لله ، ما عَلِمْنا عليه من سوء .

وقالت امرأة العزيز : الآن حَصْحَصَ حقه وبان ، واتضح نُبْله وكرمه ، وأنا حقاً اعْتَدَيْت عليه ، وطمِعْتُ فيه ، وراودْتُه عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، وأُقرّر وهو غائب ، أننى لم أستطعْ أن أسْلُبه شرفه ، وأننى خُنْتُه ، وغدرْتُ به .

ولعل يوسف ، حين اعتصم بالسجن ، وردَّ ساقى الملك ، كان ذلك ليتأكد للملك ، حين يستمع إلى شهادتين ، أنّ يوسف برىء ، وأنه عفَّ عن أن يخون العزيز فى عِرضه ، يوم كانت الخيانة ميسورةً لديه ، سهْلةً عليه ، ويوم كانت الخيانةُ تَغْمُرُه برضا الأمير ، وزوجة الأمير ، ولكنه عفَّ فاتّهمتْه واستعصم فسجَنَتْه ، وجعلتْه من الصاغرين ، ولكن الله لا يهدى كيدَ الخائنين .

* * *

ولم تأخذْهُ نشوةُ الانتصار ، ولا أغْرَتْه حَوْجةُ الأمة إليه ، واعتمادُها فى وقت الشدة عليه ، ولا غرَّه أن أصبح رجلَ الساعة وسيِّد الموقف ، ولكنه سجد لله يشكره ويصلى له ، ويغالب نفسه ، التى ضاقت بالحبْس سبع سنين ، وضاقتْ بالمرأة التى غلبتْه وحبستْه ، واستعان بالله على كَسْرِ شِرَّةِ النفس العطشى إلى الثأر والانتقام ، وما أُبرِّىء نفسى ، إن النفس لأمّارةٌ بالسوء ، إلا ما رَحِمَ ربِّى .

ولَقِىَ الملكَ ، وتحدث إليه ، فرأى فيه مخايِلَ الأمانة ، وحِكمَةَ التصرف ، وعزة النفس ، وأمارات السيادة ، فقرَّبه إليه ، ورفع منزلته لديه ، وولاه

خزائن الدولة ، وبين يومٍ وليلة ، افرِج عنه من سجنه ، وتربَّع فى كرسى وزارته ، وقال للملك ، وهو واثقٌ من نفسه : اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظٌ عليم .

* * *

وجادت السماء ، وفاض النيل ، وأخصبت الأرض ، وشاعت البركة ، وعمَّ الخير ، وغنَّى الطير ، وأمر يوسف الناس ، أن يدفعوا لمخازن الدولة ما يَفيض عن الآكلين ، يتركونه فى سنابله ، ويكدِّسونه فى مخازنه ، عاماً بعد عام ، سبعة أعوام ، حتى فاضت المخازن بالرزق الوفير .

ثم بخلت السماء ، وشحَّ النيل ، وأجدبت الأرض ، وأنكرت الزرع ، وأكلت البذر ، وجفَّ النَّبت ، وصَمَتَ الطير ، وشاع الجوع ، وخاف الناس الهلاك ، وفزِعوا إلى يوسف ، ففتح المخازن ، ووزَّع الأقوات ، وأطعم الجياع ، وأمَّن الناس ، وعدل فى العطاء ، فحسُن ذِكره ، وذاع صيته ، وتسرَّب الحديث عنه ، حتى خطَّى الحدود ، وملأ ربوع الشام .

وفى أرض كنعان ، يعيش الناس فى أرض قحْط ، وعيش شظف ، ورزق جاف ، وقد سمعوا عن مصر ما سمعوا ، من بحبوحة فى الخير ، وسَعَةٍ فى الأرزاق ، وسمعوا أن وزيرها الكريم ، لا يضن على مَن يقصدونه ، ولا يبخل على المحتاجين .

* * *

وخرج بنو يعقوب العشرة ، راحلين إلى مصر ، ودخلوا على الوزير الخطير ، فعرفهم ، وهم له مُنكرون .

عرفهم يوسف ، لأنهم إخوته ، وصُوَرُهم فى ذهنه منذ صباه ، كما هى لم تتغير ، والصُّور المنقوشة فى ذهن الصِّغر ، تبقى واضحةً كالنَّقْش على الحجر .

عرفهم ، ولم يعرفوه ، فهو الآن قد تغيَّر ، وكبر بعد صِغَر ، واغتنى بعد فقر ، وعاش بعد أن دفعوه إلى الموت ، وعزَّ بعد أن حقَّروه وأهانوه ، ووَزَر بعد أن كان من رُعاة الأغنام ، فكيف يعرفون وُجُوداً من عَدَم ؟

ومن أجل هذا عرفهم ، وهم له مُنكرون ، ولم يخطرْ على بالهم أنه نجا من الجب الذى ألقوْه فيه ، وأنه عاش وكبر ، ونزح من القدس إلى مصر ، ليصير وزيراً خطيراً .

ولكنّ الدم يحنّ إلى الدم ، مهما فرَّقتْ بينهما الجَفْوة ، وقطَّعتْ حبل الوداد القسوة فهؤلاء إخوتى ، أبناء أبى ، وأنا أخوهم ، وابن أبيهم .

* * *

ولكن ! ما بالُك يا يوسف ، لاتنْسَى أساهم ، ولا تزال تذكر غلظتهم وجَفَاهم ، وما بالُك يا يوسف ، تأخُذْك نفسُك ، فلا تسارع بالتعرُّف إليهم ، ولا ترتمى فى حِضْنهم ، ألا تزالُ واجداً عليهم ؟

* * *

وحاوَرَهم وداوَرَهم ، وساءلهم ، وأكثَرَ من التحرِّى عنهم ، والتدقيق فى بحث أمرهم ، والتفتيش عن أخبارهم ، وما بلدُهم ؟ وما حَسَبُهم ونَسَبُهم ؟ ومن أبوهم وأمُّهم ؟ وكم إخوتُهم ؟ ومَنْ لِأَبيهم ومَنْ لأمِّهم ؟ وأين هذا ؟ وأين ذهب ذاك ؟ حتى انشغل بالهُم ، من طول تفرُّسِه فيهم ، وتساءلوا

فيما بينهم ، ما لهذا الوزير يتقصَّى أخبارنا ، ويتشكك فى أمرنا ، وأبينا ، وإخوتنا ؟

وما سَمِعْنا أنه انشغل بغيرنا ، كما انشغل بنا ؟

هل لَمَسَ سُوءَ حالِنا فعطف علينا ؟ أم شك فى عددنا فَحَذِرَ منا ؟

أم هناك أمرٌ خَفِيَ علينا ؟

* * *

ولما جهَّزهم بجَهَازِهم ، قال : ائتونى بأخٍ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنِّى أُوفِى الكيل ، وأنا خيرُ المنزلين ، فإن لم تأتونى به فلا كيلَ لكم عندى ولا تقرَبون . وقال لفِتْيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رِحَالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ، لعلهم يرجعون .

فلما رجعوا إلى أبيهم ، ورأوْا آثار إكرام العزيز فيهم ، وكيف ردَّ بضاعتهم إليهم ، وأنه بهذا ، قد ورَّطهم ليأتوه بأخيهم ، توجهوا إلى أبيهم ، يُراوِدُونه ويُمنُّونه ، ويترجَّوْنه أن يُرسل معهم أخاهم ، فإنَّ عزيز مصر قد شكَّ فيهم ، وسوف لا يُصدِّق دعواهم ، إلا بدليل يقدمونه بين أيديهم ، وإلا فقد أنذرهم بالحرمان ، وحذَّرهم من دخول الأوطان .

يا أبانا ، ما نَبْغِى أكثرَ مما ترى ! فهذه غَلَّةٌ بلا ثمن ، وبضاعةٌ ردها إلينا ، وقد وَعَدنا أن يزيدنا حِمْلَ جملٍ بلا مُقابل ، إنْ نحن صَدَقْنا ووَفَيْنا .

يا أبانا إننا نَعِدُك أن نحفظ أخانا ، وأن نردَّه سالماً إليك .

* * *

قال : لن أُرْسِلَه معكم ، حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً من الله ، وعهداً عليكم ، أن تردُّوه عليَّ ، وتُعيدوه سالماً إليَّ ، وألَّا تُؤْذونى فيه ، كما آذيتُمونى فى أخيه .

* * *

ويا رحمة الله ! ويا حنان قلوب الآباء ! حتى فى هـذه الشدة يا يعقوب ، وأنت مكروب ، وجُرحُك ما يزال يقطر دماً من أجل يوسف ؛ وحتى وأنت تُسلِّم أخاه بنيامين ، لإخوته هؤلاء القُساة الظالمين ، من أجل الغذاء والتموين ، وحتى وأنت تحِسُّ وتتوقَّع أنك ستُلْدغ من هذا الجُحر مرَّتين ، وحتى فيما أنت فيه وتعانيه ، يأخُذُك الرفق والحنان بهؤلاء ، فلا تقسو عليهم فى الحَلِف ، ولا تُضيِّق عليهم الخناق ، وتفتح لهم باب الاعتذار ، إذا حدث ما لم يكن فى الحُسْبان . وتقول : إلا أنْ يُحاطَ بكم ، إلَّا أن تُغْلَبُوا على أمركم ، أو يخرج الأمرُ عن طَوْقكم ، أو حين لا تستطيعون أن توفوا بعهدكم ، فيُؤْخَذُ أخوكم عَنْوةً عنكم ، وحينئذٍ فلا تثريب ولا حَرَجَ عليكم .

أهى الرحمة يا يعقوب ؟ أم هو التنبُّؤ بما سيكون ؟ أم هى إرادةُ الله ترضاها ولا تتحدَّاها ، أم هى فِراسة المؤمن ، حين يرى من بعيد بلا تحديد ؟! فلما آتَوْه مَوْثِقَهُم ، قال : اللهُ على ما نقول وكيل .

وسمحت نفس الأب الحزين المكلوم ، وأَذِنَ لهؤلاء ، أن يصطحبوا معهم أخاهم وأن يذهبوا به إلى عزيز مصر الذى مَنّاهم ، وقد يكون يا أولادى أبرَّ به منكم ، فخذوه على بركة الله ، وأمره وأمرى إلى الله !

* * *

ويالقلوب الآباء على الأبناء ! يا لقلبك يا يعقوب ؟ ولله ما أخفى ضلوعَك على بنيك ، فلا تنسى أبداً أنهم بنوك ، مهما عقُّوك !

تخاف عليهم الرَّدى ، وتخشى عليهم العَيْن ، والعَيْن الحاسدة ، سَهْمٌ مُسدَّدة ، وأسلحةٌ مُحدَّدة ، بل هى نارٌ موقدة !

وقد استغاث نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم من الحسد ، ومن شَرِّ حاسدٍ إذا حسد .

ويخرجون يا يعقوب ، فتَتْبعُهم عينك ، ومعهم قلبُك ، وتحرسُهم دعواتُك ، وتنصحهم . يا بَنِيَّ : لا تدخلوا من باب واحـد ، وادخلوا من أبواب متفرقة .

ثم يردّك إيمانك بالله ، والرضا بمـا سبق فى قضاء الله ، واعتقادك أنه لا ينفع حَذَرٌ مِن قَدَر ، فتسترجع وتقول : وما أُغْنِي عنكم من الله من شيء .

ثم تُسَلِّم أمرك لله ، وتتوكل على الله ، كما يتوكل عليه كل من آمن بالله ، إنِ الحـكْمُ إلا لله ، عليه توكلْت ، وعليه فليتوكل المتوكلون .

* * *

ولمـا دخلوا على يوسف ، ورأى أخاه ، سجد شكراً لله ، على أن ساق إليه أخاه ، ووجده على قيـد الحياة ، فى يد أعداه ، وهُم الذين من قبلُ طاردوا أخاه ؟

* * *

ودعاهم إلى طعام ، وأجلسهم اثنين اثنين ، فبقى بنيامين بلا رفيق ، فبكى من وَحْدته ، وتذكر يوسف فى غَيْبته ، وتحدَّرتْ دموعه ، وضاقتْ ضلوعه .

وثارتْ شجون يوسف لما رآه ، وتحركَتْ نفسُه لسابق ما عاناه وقاساه .

فمال على أخيه ، وقال : يابنيامين ، أنا أخوكَ ، فلا تحزَنْ ، ولا تَبْتئسْ بما كانوا يعملون ، ولا تكاشِفْهُم بما يجهلون ، وسأدبِّر أمراً وهم لا يشعرون ، وسأبقى وهم راحلون .

* * *

فلما جهَّزهم بجهَازهم ، قال لِفتْيانه : دُسُّوا كاس الملك فى رَحْلِ أخى بنيامين ، مِن حيث لا يدرون ، ثم دَعُوهُم يرحلون .

* * *

وخرجوا ، وخرج معهم بنيامين ، إلى ظاهر المدينة ، وحين بدءوا الطريق إلى الشام ، لَحِقَ بهم المنادى يصيح : ياأهلَ الشام ، يأيَّتُها القافلة الراحلة ، أيَّتُهَا العِير ، إنكم لسارقون !

قالوا : وأقبلوا عليهم ، ماذا تفقدون ؟ قالوا : نفْقِد صُوَاعَ الملك ، وهو غالٍ علينا ، مُقَدَّسٌ لدينا ، وعارٌ فينا ، أن تضيع كاس ولينا ومولانا .

ونذْرٌ علينا ، أن نُهدى إلى مَن يردُّه إلينا ، حُمولة جَمَلٍ كبير من قمح وشعير ، وهذا وعْدُ وزير ، ووعْدُ الوزير خطير .

* * *

قالوا : تالله ، لقد علمتم ماجئنا لنُفْسدَ فى الأرض ، وما كنا سارقين !
ونحن أُمناء خُلَصاء ، مِن وَلَدِ الأنبياء ، وشريعتُنا من السماء !

فسألوهم : وماذا فى شريعتكم لعقاب السارقين ، وما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا : جزاؤه ، مَنْ وُجِد فى رَحْلِهِ فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين !

فبدأ بأوْعِيَتهم ، قبل وِعَاء أخيه ، ثم استخرجها من وِعَاء أخيه ، وحقَّ حكْمُ الشرع فيه ، وأخَذَ بنيامين بكاس الملك .

كذلك كِدْنا ليوسف ، ما كان ليأخـذ أخاه فى دِين الملك ، وديوان المملكة ، إلا بإرادة الله ، وليس بتفكيرك ولا تدبيرك يا يوسف ، إلا أنْ يشاء الله .

وبُهِتَ الأخوة العشرة ، واختلط عليهم أمرهم ، لهوْل العار الذى سيلحق بهم ، ولهذا الأخ الذى سرق ، فنُسِبَتْ السرقة إليهم أجمعين .

* * *

فطاش عقلهم ، وانساب لسانهم ، فقالوا : إن يسرقْ فقد سرق أخٌ له من قبل ، يُريدون يوسف ، وما سَرَق يوسف ، ولـكنها دَفْعَةُ الغضب ، وزَحْمة الحَرَج ، والتنصُّل من العار ، فكان عذرهم أقبح من ذنبهم .

وأسَرَّها يوسف فى نفسه ، واحْتَسَبَها عليهم ، ولم يُبْدِها لهم ، وقال وهو غاضب زاهدٌ فيهم : أنتم شرٌّ مكاناً ، والله أعلم بما تصفون .

* * *

واحمرَّ وجه الوزير ، وبان غضبه ، وكشَّر نابه ، وأغمض جفنه ، فحشُّوا بخطئهم ، وسوء تنصُّلهم من تضامنهم ، وتمرُّدهم على شريعتهم ، وحرج موقفهم فى بلدٍ غير بلدهم .

وماذا يصنعون لأبيهم ، وقد أشهد الله عليهم ، أن يُرجعوا إليه أخاهم .

فراحوا للوزير يعتذرون ويستعطفون ويقولون :

بأيها الوزير ، إنَّ له أباً شيخاً كبيراً ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك

من المحسنين ! قال : معاذ الله ، أن نأخذ إلا مَن وجدْنا متاعنا عنده ، إنا إذَنْ لظالمون .

وصرف عنهم نَظَرَه ، ووَلى ظهره ، وأغلق الباب بينهم و بينه .

* * *

ووقعوا فى ضيق ، وانحدروا فى مأزق ، واجتمعوا بعيداً عن الناس ، وتناجَوْا فى أمرهم ، قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم ، قد أخذ عليكم مَوْثِقاً من الله ، ومِنْ قبلُ ما فرَّطتم فى يوسف ، فلن أبْرَحَ الأرض ، حتى يأذَنَ لى أبى ، أو يَحْكُمَ الله لى ، وهو خيرُ الحاكمين ، يحكم بينى و بينكم ، ويُظهر حقى وحقكم ، يوم نصحتُكم ألا تقتلوا يوسف ، وألا تمسُّوه بسوء ، ويا إخوتى ، هذه أختُ تِلك ! وسيأخذكم ربّكم بتمرُّدكم علىّ ، وأنا أكبركم ، وعلى أبيكم ، وهو ذو فضل عليكم .

ارجعوا ، وياخَيْبَةَ ما رجعتم ، إلى أبيكم ، فقولوا : يا أبانا ، إن ابنك سرق ، وما شَهِدْنا إلا بما عَلِمْنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسألْ القريةَ التى كنا فيها ، والعِيرَ والتجّار الذين كنا معهم ، واحْلِفُوا له : إنا لصادقون .

* * *

وماذا يفيد يعقوب ، مِن أعذارٍ ومعاذير ، إلا أن يستسلم للمقادير ! وماذا يستطيع ، وهو الشيخ الكبير ، ذو القلب الكسير ، إلا أن ينصرف إلى الله يدعوه ويضْرع إليه ، ويقول : بل سوَّلتْ لكم أنفسُكم أمراً ، فصبرٌ جميل ، عسى الله أن يأتينى بهمْ جميعاً ، إنه هو العليم الحكيم .

* * *

وتولّى عنهم ، وراح يَندُب حظّه ، ويبكى ولدَه بعد ولده ، والجُرحُ الأول أعمق ، والجُرح على الجُرح أنكى وأشدّ .

* * *

فبكى ، وتحسّر ، وطال بكاؤه حتى نفِدَتْ دموعه ، وابيض سواد عينه ، فعَمِىَ ، وكظم غيظه ، وانطوى على نفسه ، وشَرَدَ فكره ، وكاد يهلِك ، إلا أن تتداركه رحمة الله .

* * *

وعزَّ على أهله حالهُ ، فواسَوْه وصبَّروه ، ولامُوه على إغراقه فى أحْزانه فقال لهم : ياقوم ، مالكم تلومون وأنتم لاتعلمون ، إنما أشكو بَثِّ وحزنى إلى الله ، وأعْلَمُ من الله ما لا تعلمون .

وما أحلى الأمانى والآمال ! هما رَوْحُ وريحان ، وعَوْنٌ على الحدَثان ، وصِمَامُ الأمان فى حياة الإنسان .

وما أحبَّ الأمل فى الله ، والتمنّى على الله ! حين يقول يعقوب لبَنيه لاتَيْئَسُوا من رَوْح الله ، إنه لايَيْئس من رَوْح الله إلا القومُ الكافرون .

يا بَنىَّ ، اذهبوا فتحسَّسُوا من يوسف وأخيه .

* * *

ياليت الآباء هكذا يصنعون ، ويبعثون رُوحَ الأمل فى بنيهم حين لايُوَفّقُون وياليتهم يأخذون بأيديهم حين يسقطون ويقعُون ، ولا يَسخطون ويَصْخَبُون ، وياليتهم بهذيك يايعقوب يسترشدون ، تدفعُهم إلى العمل ، بما تُولِّدُ فيهم من أمل ، يا بَنىَّ ، لاتيئَسوا من رَوْح الله !

وجهَّزوا جَهَازهم ، وحملوا متاعهم وبضاعتهم ، ودخلوا مصر ، وقد هدَّهم التعب ، وكدّهم العيش ، وضاقتْ بهم السُّبل ، لأبيهم الفانى ، وأخيهم الأسير ، والعزيز الغاضب ، والقحْط القاتل ، والحياة المهدَّدة ، والنفس المنكسرة .

ودخلوا عليه ، فقالوا : يأيها العزيز ، مسَّنا وأهلَنا الضُرُّ ، وجئنا ببضاعةٍ مُزْجَاة ، من صوفٍ ، ودراهمَ زُيُوف ، وقليلٍ من قليل ، فأوْفِ لنا الكيل ، وتصدَّقْ علينا ، إن الله يَجْزِى المتصدِّقين .

* * *

ويوسف دقيقُ الحس ، رقيقُ القلب ، لطيفُ الوجدان ، وإلى هذا الحدِّ لا يطيق ، أن يرى على إخوته الذُلَّ والتذلُّل ، والمهانة والاستكانة ، وطَلَبَ الصدقةِ والمعونة .

أما إلى هذا ، فما قَصَدْتُ يارَبِّ .

* * *

وبدأ يلين القلب ، ويَبْسِم الوجه ، وتبدو البشاشة ، وتظهر النَّخْوة ، وبوادر النَّجْدة ، وعلامات العفو والسَّماحة ، ولمَعَتْ العَيْن ، وسحَّتْ بدمْع الغُفران والمحبَّة .

هل عَلِمْتُمْ مافعلْتم بيوسف وأخيه إذْ أنتم جاهلون ؟

قالوا أَإِنَّك لأَنت يوسف ؟

قال : أنا يوسف ، وهذا أخى ، قد منَّ الله علينا ، إنه من يتَّقِ ويصبرْ ، فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين .

اليوم يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين .

* * *

اذهبوا بقميصى هذا ، الذى أبقَيْتُموه على جسدى ، ليستُره إنْ عِشْت ، أو يُكَفِّنني إنْ متُّ ، يوم الجُبِّ ، فألْقُوه على وجه أبى ، يرتدّ بصيراً ، وائتونى بأهلكم أجمعين .

* * *

يرحمك الله يا يعقوب ، تَشَمُّ ريحَ يوسف من مصر إلى الشام ، أمْ هى ريحُ الله هبَّتْ على فؤادك ، فطيَّبته وطرَّتْه ؟

* * *

ألم تقُلْ يا يعقوب ، لا تيئَسُوا من رَوْح الله ، فذلك رَوْحُ الله ، وريْحَان الأمل ، وعِطْر الوُجدان ، وفَوْحُ الاطمئنان !

* * *

يرحمك الله يا يعقوب ، تجِدُ ريحَ يوسف ، وتَشَمُّها على بُعْد الطريق إليك ، وتخشى أن يُكذِّبوك ، ويتّهِمُوك بأنك خَرِفْتَ ، وهم كما حَسِبْتَهم ، يحلفون ويقولون : تالله ، إنك لفى ضلالك القديم ، وإنك لمريضٌ سقيم .

* * *

فلما أن جاء البشير ، ألقاه على وجهه ، فارتَدَّ بصيراً ، قال : ألم أقُلْ لكم : إنِّى أعلم من الله ما لا تعلمون .

* * *

قالوا يا أبانا استغفرْ لنا ذنوبنَا ، إنا كنا خاطئين .

قال : سوف . وبَعْد حين ، وبعد أن أطمَئنَّ على ولدى وولدى ، وبعد أن يَكتحل بمرآهما عينى ، وبعد أن تَبْرُدَ نار الفراق بالتلاقى ، وبعد أن يسكن قلبى ، ويَرُوحَ عنى غضبى ، وبعد أن أَصفُو إلى نفسى ، فأتوجَّه إلى ربى ، سَوْف أستغفِر لكم ربى .

* * *

ولما دخلوا على يوسف ، آوى إليه أَبويْه ، ورفعهما على العرش وخرُّوا جميعاً له ساجدين .

أمُّه الشمس ، وأبوه القمر ، والكواكب إخوته الأحد عشر .

* * *

وقال : يا أبت . هذا تأويلُ رؤياى من قبل .

قد جعلها ربى حقاً .

وقد أحسنَ بى إذْ أخرجَنِى من السجن .

وجاء بكم من البَدْو .

من بعد أن نَزَغَ الشيطان بينى وبين إخوتى .

إن ربى لطيف لما يشاء .

إنه هو العليم الحكيم .

* * *

ربِّ ، قد آتيتَنى من المُلْك ، وعلمتَنِى من تأويل الأحاديث ، فَاطِرَ السموات والأرض ، أنت وليِّى فى الدنيا والآخرة .

توفَّنِى مُسْلِماً ، وأَلْحِقْنِى بالصَّالحين .

موسى

بسم الله الرحمن الرحيم

ا ـ ل ـ م ـ أَحَسِبَ الناسُ أن يُتْركوا ، أنْ يقولوا آمنَّا ، وهم لا يُفتَنُون ؟ ولقــد فتَنَّا الذين مِن قبلِهم ، فلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقوا ، وليَعْلَمَنَّ الــكاذبين .

* * *

ولقد فتن الله آدم وابْتلاه فى ولديْه ، وفتن نوحاً فى ولده يوم تمرّد عليه وفتن إبراهيم فى ذبح ولده إسماعيل ، وفى النار يوم أوْقدوها عليه ، وفتن يوسف و يعقوب ، وفتن أمَّ موسى وابتلاها ، يوم أوحى إليها : أن أرْضِعيه ، فإذا خِفْت عليه . فألْقيه فى اليمِّ ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادُّوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين .

* * *

يا ربِّ ! هو ولدى ، وفلْذة كبدى ، فهَبْ لى القُدرة على أن أرْميه فى البحر .

* * *

يا رَمَاكَ الله يافرعون ! وفرَى كبدك ! تُلجئنى أن ألْقِى بولدى فى نهر النيل ، وإلَّا ذبحتَه ، وشفَيْتَ بدمه الغليل الذى يأكل صدرَك ، وأطفيْتَ النار التى تتلظَّى من الأطفال بين جنبيك ، وليس من ذنب ، إلا أنّك رأيتَ

فى منامك : أنّ ولداً سيولد ، وسيُطيح بعرشك ، وسيقاوم طُغْيانك ، وسيُفسد عليك أُلوهيَّتَك !

* * *

وما ذَنْبُ ولدى ؟ وما ذَنْب كلِّ ولد ؟ وما جَلَدِى ؟ وما جَلَد كلِّ أم ؟ حتى تفْجع الأمهات فى أولادهن ؟

* * *

لقد سلَّط الله عليك أطْيافَ المنام ، لتُبلْبِل بالَك وتشغلك ، وتفزِّعَك بكُفْرانك ، وعُتُوِّك وسُلطانك ، ألا قاتَلَكَ الله يافرعون ! وهو قَاتِلُك بما أسلَفْتَ لهذا الشعب !

* * *

وراحتْ المسكينة ، تصنع صندوقا ، وتَفْرِشه بفرشٍ طَرِىّ ، وتفتح فى غطائه ثقوبا ليتنفس الوليد ، وهى حَيْرى فيما تضع معه من زاد ، ولا زاد غير لبنها ، وياليتها تستطيع أن تُهْدِى إليه ثديَها .

ولكنَّ إيماناً ملأ قلبها ، أَنْ أَرْضِعِيهِ وكَفَى ، فالله راعِيه ومُغَذِّيه ، وحارسُه ومُنْجِيه ، بل لا بد من أن تظهر قدرتُه فى أن يُربِّيه فى حِجْر عدوِّه ومُجَافيه .

* * *

وأودعَتْه الصندوق ، واستودعته الله ، وبلَّلت حطام الصندوق بالدموع ، وأفرغتْ عليه كلَّ ما فى حشاشتها من حنان : وفى جُنْح الظلام أسلمتْه للماء فى النيل .

* * *

فأىُّ قلبٍ قلبُكِ يا أمّ موسى ؟ وأىّ نُور غمره ! وأىّ ثقةٍ فى الله ثبَّتَتْه ؟ وأصبح فؤاد أمِّ موسى فارغا ، إنْ كادتْ لتُبْدِى به ، لولا أنْ ربَطْنا على قلبِها ، لتكون من المؤمنين .

وقالتْ لأخْته قُصِّيه وتَتَبَّعِيه ، فسارتْ على شاطىء النيل تُحَاذِيه ، وتسرع إذا أسرع به التيار ، وتُهَدِّى سيرها إذا هدَأ ، ويَالَهْفَ قلبِها ، حين مال به الموج ، فدفعه إلى قصرِ الملك فرعون ، إلى شاطئه ، وفى أعشابِ حدائقه ، رَكَنَ الصندوقُ واضْطَجع .

وكادَتْ أخته تصرخ ، ولو كان الصندوق يسمع ، لحذَرتْه أنْ يقفَ أمام فرعون ، فكلُّ ما نخشاه ، وكلُّ ما اضْطرنا إلى أنْ نُلْقيه فى البحر ، خوفُنَا عليه من فرعون ، أفَنَقْذِفُه يا مَوْجُ بين يديه ؟ وإلى حَيث نَخْشَى عليه ؟

يا ربِّى لك حِكْمَة ، ومِنْك التَّوجيه ، وعليك الخَلَاص !

* * *

وكان فرعون وامرأتُه ، يُطلَّان على النيل ، من شُرفات القصر ، فرأيَا الصندوق ، وجاء به الحُراس إليهما ، وهمَّ فرعون أن يسبق امرأته ، إلى فتحه ، والكشْف عما فيه .

ولكنَّ رحمة الله سبَقتْ إلى قلبها ، فألهمه بحب مَن فيه .

وانفتح الصندوق ، وانبعث منه عمودٌ من النور ، نفذ إلى قلبها فأضاءه ، وإلى صدرها فرطَّبه بمحبته ، وإلى جوانحها فأشعلها بالحنان عليه ، وإلى عاطفةِ الأمومة : وهى عَطْشى تتحرَّق ، فألهمها أن تتبنَّاه .

وألقيتُ عليكَ محبةً مِني ، ولتُصْنَعَ على عيني ، وصاحت قائلة : قُرَّةُ عينٍ لى ولك .

وثار فرعون لِامرأته ، وهمَّ أن تلطمه يداه ، وأن تَرْكله رجلاه ، ولكنْ !

ولكنَّ امرأته ، شخَصَتْ بعينيْها إليه ، وترجَّته واستعطفته بحبِّها لديه ، أن لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

* * *

يا رعاكِ الله أيتها المرأة ! يا ذاتَ القلب الرحيم ! أنقذْتِ موسى من الذبح ، وفتحتِ له باب الحياة ، ووهبت له عمراً من جديد ، ليحمل الرسالة ، ولينقذ هذا الشعب المسكين ، ويُنجيه من الطغاة المفسدين !

وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذْ قالت : ربِّ ابْنِ لى عندك بيتاً فى الجنة ، ونجِّنى مِن فرعون وعمله ، ونجِّنى من القوم الظالمين :

* * *

وتلقَّفتْ موسى من بين يديه ، وأنْجته من مخالب الموت ، ووضعته بين سَحْرِها ونَحْرِها ، وأخرجتْ له ثديها ، ولكنَّ موسى ، مُحرَّمٌ عليه أن يرضع إلا من ثدى أمه المؤمنة الصابرة .

وحرَّمنا عليه المراضع ، فما يقْبَل ثديا ، وما يقبل شرابا ، وما يَكُفُّ عن بكاء ، مُرضعٌ ، ومُرضعٌ ، ومَرَاضع ، واحدةٌ تِلْوَ الأخرى ، حتى أزعج القصر ، وسَرَتْ فيه رُوح الإشفاق على الرضيع ، وحتى تمنَّى كلُّ مَن فيه ، أن لو يعرفوا أى مُرضعة ! وسأل بعضهم بعضا ، وهم لا يدرون ماذا يصنعون .

واختُه قريبةٌ منه ، ولا يدرى أحدٌ مِن أمرها شيئا ، فلعلها فتاةٌ صغيرة ، دفعها حبُّ الاستطلاع ، إلى أن تدخل البُستان بلا حساب ، لتعرف خَبَرَ طفلٍ وجدوه فى صندوق ، تحمله أمواج النيل .

وتقدمتْ إلى هؤلاء المُشفقين عليه ، وقالت : هل أدلكم على أهلِ بيت يَكْفُلُونه لكم ، وهم له ناصحون ؟

* * *

بارعةٌ هذه البنت فى طريقة عَرْض فِكرتها ، ولو كانت بنتاً أخرى ، لقالت : أستطيع أن آتيكم بمُرضع أعرفها ، ولكنها أصرَّت على أن يُسلِّموه إليها ، فتسلِّمه إلى أهل بيتٍ يُرضعونه ويتعهَّدونه ويُربُّونه ، وأن يجعلوا بيتهم دار كَفَالة .

فرددْناه إلى أمِّه ، كى تقَرَّ عينُها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حقٌّ ، ولكن أكثرهم لا يعلمون أنها أُخته ، وأن المُرضع أمُّه .

* * *

واطمأن قلبها ، وصدق وعدُ الله ، فأرضعَتْه ، وأكْمَلَتْ رضاعه ، وامرأة فرعون ، تسأل عن الوليد ، وتُوصِّى عليه ! وتُغْدِق أجْرَ رضاعه ، حتى بلغ الفِطام ، فعاد إلى القصر ، ليُرَبَّى فى حِجرهم ، وليعيش فى المقاصير .

فأصبح ابنَ القصر ، ووحيدَ الملكة ، وبَلْسم جراحها ، ورِىَّ عطشها ، وولدَها يوم لا ولد لها ؟

وفرعون يرى ، ويَغَار ، ولا يملك إلا أن يسكت مرة . ويجامل الملكة مرة ، فيتصنَّع المحبة ، ويتظاهر بالإعزاز ، ويُبدى كلَّ رعاية وعطفٍ وحنان .

ولكنّ فرعون ، كان بين الحين والحين ، تتحركُ نفسُه ، وتتحفز غَيرْته ، من هذا الوليد ، الذى شغل قلب امرأته عنه ، وأبْرَدَ عواطفها نحوه ، فيَهُمُّ به ليبطش أو ليقتل ، فكانت تدركه ، وتهدِّئ من ثورته ، وتطفى من نار غيرته .

ولكنْ ما عُذر الصبى ، إذا جلس يوماً فى حِجْر فرعون ، يلعب على صدره ، ويَثِبُ على كتفيه ، ويشدُّ خُصْلةً من شعرات ذقنه !

أما إلى هذا الحد ، والاجتراء على لحية الملك ، فليس إلا الذبح ، وثار ، وأثار الضجيج والغبار ، ونادى السيَّاف ، لولا أن تداركتْه المرأة بحيلتها ، واستشفعتْ بأن الصبى ، لا يدرى ، أنَّ ذلك يُغضب ، وأنَّ الطفل لا يُفَرِّق بين التَّمْرة والجمرة ، وقدَّمتْ هذه وتلك ، وشاء الله ، أن يتناول الجمْرة ، ويَدَعَ التَّمرة ، ويدفعها إلى لسانه ، فتصيبه بسوء .

* * *

وكبر موسى واستوى ، وصنعه الله على مُراده وعينه ، وربَّاه فى حِجر عدوه ، وآتاه الله حِكمة ، ومنحه علما ، وكذلك نجزى المحسنين .

* * *

وموسى ، لا ينسى أنه من بنى إسرائيل ، يعلم ذلك ، ويحسُّه فى دمه وعواطفه ، ويرى أن بنى إسرائيل قومُ مستضعَفون ، يُذلّهم فرعون ، ويضغط عليهم فى حياتهم . ويُدرك أنه إنما آتاه الله العلم والحكمة ، وكرَّمه هذه التكرمة ، ليدرك قومه ، وينقذهم من ظلم الظالمين .

* * *

وهو من أجل هذا ، يفور ويغضب ، وتثور عصبيَّته ، حين يخرج إلى المدينة ، فيرى رجلا من هؤلاء الفراعنة المفسدين ، يقاتل رجلا عِبْريًّا من بنى إسرائيل ، فاستغاثه الذى من شِيعتِه ، على الذى من عدوِّه ، فوكَزَ موسى ذلك المُعْتدى الفرعونى ، ولكَمَهُ لكْمةً قوية ، يُناصر بها قريبَه المظلوم على ظالمه ، فكانت ضربةً قاضية ، قتلتْه ، وأزهقتْ رُوحه .

* * *

ولكن موسى ، لما هدأ لنفسه ، وأفاق من تعصُّبه وعصبيَّته ، وبان له سوء فعله ، ندم ، واستغفر ربه ، من جريمةٍ ما كانت تدور بخَلَدِه ، وإنما كانت حماقة ، وما الحمق إلا من عمل الشيطان ، إن الشيطان لَغَوِىٌّ مُضِلٌّ مُبين ، وقال : ربِّ ، إنى ظلمتُ نفسى ، فاغفرْ لى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم ، وقال : ربِّ ، بما أنعمتَ علىَّ فلن أكون ظَهِيراً للمجرمين .

* * *

وحمل أهلُ القتيل قتيلهم ، وهُمْ جبابرة فراعنة ، وراحوا يبحثون عن القاتل ، فلم يعرفوه . وتربَّصوا به ، وترقبوه لعلهم إليه يهتدون ، فيقتلونه ، ويُوقعون به العذاب الأليم . فأصبح موسى فى المدينة خائفا يترقَّب .

وجاءه قريبُه الإسرائيلى ، يستعينه ، كما استعان به بالأمس ، ليقتل رجلا آخر من القوم ، فانتفض موسى ، وفزع فيه ، وحذَّره أن يُغْريه عطفُه عليه ، وخوَّفه نتيجة جَلْب المشاكل إليه ، وهمّ به ليردَعه ، وليفهِّمه أن التعصُّب والعصبيَّة لن تنفعه ، وقال له موسى : إنك لَغَوِىٌّ مُبين .

ولكن هذا الأحمق السَّفيه ، خاف من موسى ، وظن أنه سيقتله ، فقال : يا موسى ، أتريد أن تقتلنى ، كما قتلتَ نفساً بالأمس ؟ إنْ تريد إلا أن تكون جبّارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين .

وإذا الذى استنصره بالأمس يستصْرِخُه ، ويُؤلِّبُ الناس عليه .

* * *

وعرف القوم فى المدينة ، أن موسى قاتل ، وأنه مطلوبٌ بقتيله ، وائتمر به القوم ليقتلوه ، وجاء رجل طيب ، من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى ، إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرجْ إنى لك من الناصحين .

فخرج منها خائفا يترقب ، قال : ربِّ نجِّنى من القوم الظالمين .

* * *

أهكذا تكون القرابة ؟ وأهكذا تكون عاقبة الإنسان فى اندفاعه فى حب أهله ؟ يا سبحان الله !

أمنْ قصر الملك ، ومن حِجْر فرعون ، وفى استواء القوة ، وكمال العلم ورجحان الحكمة ، ونُصْرة المظلوم ، والتعصّب للأهل ، والتفانى فى حماية القوم ، أمن كل هذا تخرج يا موسى شريدا طريدا ، مطلوبا بالثأر خائفا تتلفّت ، مذعورا تترقب ، فى غَلس الليل ، وسواد الوحدة ، لا أهل ، ولا زاد ، ولا راحلة ، ولا أمل ، إلا فى النجاة بالنفس ، والإفلات من الموت ؟ !

* * *

أيجزع ؟ أم يلعن هذا الأحمق المغفل ؟ الذى جر عليه الويل ، وجلب له

الحرمان والتشريد ، والفرار من وجه الثائرين الغاضبين . فزعزع حياته ، وخلع عنه سعادته ، وقديماً قيل : اتقِ شرَّ من أحسنتَ إليه !

* * *

وكان لابد من الفرار ، ولكن إلى أين يفر ؟ وهو فى مصر ؟ أإلى المغرب ؟ وكله صحراء جرداء . أإلى الجنوب وهو عالم مجهول .

لابد من الفرار بالدين ، إلى منبع الأديان ، إلى منبت الأنبياء ، إلى الشرق .

والشرق بعيد ، من الفيّوم إلى الشام ، يمشى بالليل ، ويستكِنُّ بالنهار ، حتى يعبر البحر الأحمر ، أو يدور مع الشاطىء حتى يدخل من شبه جزيرة طور سيناء ، حتى يدخل بلاد العرب .

وهنا يلقى أول ناس يلقوْنه ، قبائل مَدْيَن ، الذين أرسل الله إليهم نبيهم الشيخ العجوز الفانى شُعَيْبا ، فطرح نفسه تحت شجرة ، يستروِح فى ظلها ، وليريح جسمه ، ويطمئِن روحه إلى أن نجا من القوم الظالمين .

ورأى على بعد ، ناسا مجتمعين ، ورعاة أغنام يتزاحمون ، على عين ماء ، يسقون أغنامهم ، ورأى أن الأقوياء يزاحمون الضعفاء ، وأن الضعفاء محرومون لا يسقون .

وأبصر من وراء هؤلاء المتزاحمين ، بنتين جميلتين ، تحجزان غنمهما عن زحمة الناس حتى يسقى الأقوياء .

والمرأة فيها حياء وضعف ، وبهاتين الغريزتين تستثير نخوة الرجال ، فيندفعون إلى خدمتها ومعونتها .

وكذلك كان موسى ، فتقدم إلى الفتاتين يسألهما ، ما خطبهما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يُصدِر الرِّعاء ، وأبونا شيخ كبير .

فتقدم موسى ، وزحم القوم كما يتزاحمون ، وسقى لهما الغنم ، ثم تولى إلى الظل ، والله أعلم به ، وبجوعه ، وتعبه ، وما يجول بخاطره ، من مطاردة الكفرة فى وطنه ، ومن مشقته فى هربه وسفره ، ومن الوحشة فى غربته .

فاتجه إلى ربه ، يدعوه ، أن يفرج كربه ، وأن يوسع ضيقه ، وأن يؤنسه من خوف ، وأن يهيىء له الزاد والمنزل .

ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب .

* * *

وفيما هو غارق فى مناجاة الله ، جاءته إحدى البنتين ، تمشى إليه فى حياء وخفر ، وفى جمال نضر ، قالت : يا هذا ، إن أبى يدعوك ، ليجزيك أجر ما سقيت لنا .

وما كان موسى يترقب أجرا على معروف ، ولكنه ملهوف ، يرى أن هذه الدعوة التى دعاه إليها الشيخ ، نعمة ساقها الله إليه ، وما يصح وهو غريب أن يرفض هذه الدعوة ، أو يرد هذه النعمة .

* * *

وسار هو والفتاة ، ثم رأى أن تمشى أمامه لتدله على الطريق ، ثم رأى أن يسبقها وأن تمشى من ورائه ، وتنبهه إلى منعطفات الطريق ، حتى لا يتبعها بعينه ، والنظرة الأولى لك ، والثانية محسوبة عليك .

* * *

ووجد شعيب أبوها ، ذلك الشاب ، المهذب ، القوى ، الغريب ، وهو شيخ كبير ، محتاج إلى شاب ، مهذب ، قوى ، غريب ، وسمع منه ، وعرف عنه ، وتفرّس فيه ، وعلق الأمل عليه ، فطمأنه ، وطيب خاطره ، واستضافه عنده .

* * *

وما أجمل المصارحة فى تربية البنت ، حتى تعيش مع الناس ، صريحة ، لا تنافق ، ولا تتوارى ، تبدى عاطفتها ورغبتها فى شجاعة وعفاف ، فتريح نفسها من الكبت ، وتريح أهلها من المراقبة ، فتظللها الثقة ، وراحة البال ، ورضى النفس !

وما أجرأها حين تقول : ياأبت ، استأجره ، إنّ خير من استأجرتَ القويُّ الأمين . فقد خبرته فى قوّته ، يوم زاحم الأشداء المتزاحمين ، فأفسح الطريق ، وسقى الغنم ، وما تعرض له متعرض ، أو زاحمه مزاحم .

وخبرته فى أمانته ، يوم سارت إلى جانبه ، فخشى قول الناس فيها أنها تمشى مع رجل غريب ، وخشى أن تقع عينه عليها ، حين سارت أمامه لتدله على الطريق ، فأخرها وراءه ، وتلك غاية حدود الأمانة على فتاة جميلة ، أرسلها أبوها إليه يستدعيه .

والرجل ، شيخ مجرب ، ناضج الأبوّة ، فاهم للدنيا ، دارت برأسه فكرة ، وكثيراً ما تدور برءوس الآباء أفكار ، ولكن الآباء لا يقدرون على ما قدر عليه شعيب ، ولا يدرسون مسائلهم ، كما درسها شعيب .

فهو قد تحدث إلى هذا الشاب الغريب ، وانتهى إلى رأى فيه .

والرجل العاقل يخطب على ابنته ، من قبل أن يخطب لابنه .

والشيخ قرر أن يكسب هذا الشاب ، وأن يزوجه ، وقرر أن يمنحه ، لا ، بل أن يمكنه من حقه فى اختيار زوجته ، فلم يلزمه أن يتزوج إلا برغبته وبعد مشورته ، والشيخ يعلم أنه لابد أن يقدم الزوج مهراً لزوجته ، وأن مهر الزوجة لابد أن يكون على قدرها ، مناسباً لمقامها ، وقدَّر أنْ يكون المهر مالا إذا كان فى يد الزوج مال ، أو يكون عملا يساوى ذلك المال . وقدر أن يكون عمل زوج البنت عند حميه ، أولى من أن يعمل عند الغرباء ، وقدَّر أن مهر بنته ، يساوى أجر هذا الزوج على عمله مدة ثمانى سنوات ، وقدَّر أنّ الزوج قد يُهدى إلى زوجته هدايا إذا شاء ، وقدَّر حدَّ هذه الهدايا ، يساوى أجرَه على عمله سنتين .

قال شعيب لموسى : إنى أريد أن أُنكِحَك إحدى ابْنَتَيَّ هاتين ، على أن تأجُرَنى ثمانىَ حِجَجٍ ، فإن أتممْتَ عشراً فمِنْ عندِك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى إن شاء اللهُ من الصالحين .

وقال موسى لحميه شعيب ، رضيتُ ذلك الاتفاق بينى وبينك ، أيَّما الأجلين قضيتُ ، فلا عدوان علىَّ ، والله على ما نقول وكيل .

* * *

أليس هذا نواة التشريع ؟ لقانون العمل الفردى ؟ بين العامل وصاحب العمل ؟

وأليس فى هذا رسمُ خطةِ بناء التعاقد بينهما على الشفقة والمودة ،

وألا يكون فيه إعناتٌ ومشقة ؟ وأن يكون التعاقد قائماً على شهادةٍ وشهود ، وهما بنتاه ، والله على ما نقول وكيل ؟

ولـكن ! أكان هذا الحدُّ والعَدُّ ، معدَّل مهور الزوجات فى ذلك العهد ؟ أجر ثلاثة آلاف يوم ، غير الهدايا ، لعامل أمين مهذب قوى مثل موسى ؟ يحمل الأعباء ، ويرعى الشئون ، ويُخلص فى الخدمة ، ويَدْرَأُ العادية ؟

فى أيامنا هذه ، لا يكفى العاملَ الأمين المهذب القوى ، إلا نصفُ جنيه ، يعيش بربع جنيه ، ويوفر ربع جنيه ، وربعُ جنيهٍ فى ثلاثة آلاف يوم تساوى : سبعمائة وخمسين جنيهاً ، غير ما عرض عليه من الإهداء إن شاء قدَّم ، وإن شاء لم يقـدم ، فإن أتممتَ عشراً ، فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك .

* * *

أكان هذا من شعيب مغالاة فى مهر ابنته ؟ * غالى بنفسِىَ عِرْفانى بقيمتها * ؟

أم كان ذلك منه ، ليُفسح لموسى الأمل ، ويمدَّ له فى خيط الأجل ، لعله يُروض نفسه على الإقامة فى وطنٍ جديد ، فيستبدل وطناً بوطن ؟

أكان ذلك عن إعزاز لابنته ، فـما أحبَّ أن يزوجها اليوم ، لترحل عنه فى غَدِه ؟

أم كان ذلك ، ليُشرِّع للناس أن البنت ليست عاراً ومَعرَّةً على أهلها ، إذا حسَّنوا تربيتَها ، وأن أباها يكسب رجلاً بها ، ويَقْوَى بمصاهرتها ؟

* * *

ولعل شعيباً كان أبعد نظراً ، وأسمى تدبيراً من كل ما نفكر .

ورأى أن مصلحة موسى ، فى البُعد عن أولئك القوم الكافرين ، الذين يطلبونه فى وطنه بدم القتيل ، وأن من الخير لموسى ، أن تطول إقامته فى مِحْراب الصلاة ، ومعبد الفلاة ، ورهبانية الصحراء . فلا يكون ما يشغله فى الحياة ، عن الله وعن الصلاة ، حتى تبلغ سِنُّه الأربعين ، سِنّ القوة على احتمال النُّبوَّة والرسالة ؟

* * *

فلما قضى موسى الأجلَ الذى تعاقد عليه ، كان قد اشتد به حنينه إلى وطنه ، فلم يشتر به وطنَ زوجته ، ولم يُلْهه عنه عزُّ حميه ومالُه ، ولم يفعل ما يفعلُ أبناؤنا فى هذا الزمان ، حين يسافرون إلى الغرب فى طلب العلم ، فيقعُون على الأجنبيات ، ويبيعون أنفسهم وأهلهم وأوطانهم ، ويرحلون على هوى الزوجات ، ويرتمون هناك تابعين مسخَّرين ، وإلا عادوا إلينا ، أنقاضاً محطمة ، بعد أن يَذْوِىَ شبابُهم ، وتهلِكَ نفوسُهم ، وتَموُع شخصياتُهم ، وترخُصَ فى سوق الوطن أسعارُهم .

وموسى كان أكرمَ على نفسه ، وكان وطنُه أكرمَ عليه من نفسه ، فجمع شمله ، واصطحب أهله ، ورجع قافلا إلى مصر ، مُزوَّداً بدعوات شعيب .

فوصل إلى حدود بلاد العرب من الغرب ، ووقف على أبواب جبل الطور ، والجبل تِيهٌ ، يَتِيهُ فيه من لم يعرف الطريق ، وضلَّ موسى طريقه ، فأقام زمناً حتى يهتدى ، فلَسَعَهُ البرد ، ولسع أهله ، فالتمس الهداية على ضوء النار ،

التى يوقدها الناس ، ليهتدى بها الضالّ ، وليُكْرَمَ بها الضيف ، وَيدْفأ بها البَرْدَان .

وقد آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا ، إنى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر ، أو جَذْوَةٍ من النار ، لعلكم تصْطَلون .

وسار فى سفح الجبل ، حتى نزل الوادى المُقدَّس ، الذى ناداه الله فيه ، واختاره لرسالته ، ومنَّ عليه فكرّمه ، وجعله من المرسلين .

* * *

وماذا يكون من مظهر التأدُّب فى الاستماع إلى الله سبحانه ، إلا أن يخلع الإنسان نَعلَيْه ، وماذا يُفهَمُ من خلع النعل ، وحَفَى القدمين ، إلا الخضوع ، والالتفات بكافة الحواس ، إلى تَلَقِّى هذه المهمة الخطيرة ، والانصراف عن مشاغل الحياة من أهل ومن مال ؟

فلما أتاها ، نُودِىَ : يا موسى ، إنى أنا ربُّك ، فاخلعْ نعليك ، إنك بالوادى المقدَّسِ طُوًى .

* * *

ونداء اللهِ عبدَه ، وكلامُه إلى الأنبياء ، كان تَلَقِّياً رُوحِيًّا ، فيَتَمَثَّلُ هذا التَلَقِّى الرُّوحِىُّ للجسد ، فيجرى به اللسان من إملاء الروح .

وفى أيامنا ، نسمع الأصوات المجسَّمة ، لا ندرى من أى ناحية أتتْ ، وإنما هى أصواتٌ تملأ الرُّوحَ والجسد .

وأنا اخترتك ، فاستمعْ لما يُوحَى ، إننى أنا الله ، لا إله إلا أنا ، فاعبدْنى وأقِم الصلاة لذكرى ، إذا ذكرتَنِى ، أو لتذكُرَنى بها .

وما تلك بيمينك يا موسى ! قال : هى عصاى ، أَتَوَكَّأُ عليها ، وأَهُشُّ بها على غنمى ، ولِىَ فيها مآرِبُ أخرى ، تنفعنى فى تقريب البعيد ، وصدِّ العُدوان ، وتسهيل المصاعب ، وتفريج الكروب .

وقال الله لموسى : أَلقِها ، فألقاها ، فإذا هى حيةٌ تسعى ، فخاف موسى واضطرب ، من سرٍّ فى عصاه ، كان خافيا عليه ، ولِهَوْلِ ما رآه ، حين تَلْتَقِمُ الحجر ، وتبتلع الثمر ، وتأكل الشجر ، فجرى موسى ليهرب .

وقال الله لموسى : خُذْها ، ولا تَخَفْ ، سنُعيدُها عصاً ، مرةً أخرى .

وقال الله لموسى : وَضَعْ يدك فى جيبك ، واضْمُمْ يَدَكَ إلى جناحك ، وتحت إبطِك ، ثم أَخْرِجْها ، لترى أنها بيضاء بياضَ اللبن ، لا بياضَ البُهاق والبَرَص .

فالعصا ، يا موسى ، آيةٌ ومُعجزة ، ويدُك آيةٌ أخرى ومُعجزة .

واذهبْ يا موسى ، بهاتين الآيتين ، وهذين الدليلين القاطعيْن ، إلى فرعون بمصر ، فذَانِكَ بُرْهانان من ربِّك ، إلى فرعون وَمَلَئِه ، إنهم كانوا قوما فاسقين .

* * *

مُهِمَّةٌ ، تحتاج إلى عَزْمٍ وَجَلَد ، تُلْقَى على عاتق رجل غائب عن وطنه زمانا طويلا وهو مطلوبٌ بثأرٍ قديم ، ومهمتُه أن يُحَوِّل فرعون الطاغية الجبار من دين إلى دين . وأن يزحزحه من قمة مجده ، إلى سفح عامَّة شعبه ، وأن يرفع من نفسيَّة هذا الشعب الكسير المظلوم ، وأن يُسَوِّىَ بين هؤلاء وهؤلاء .

* * *

وطلبَ موسى من ربه مَطلَبَيْن : طلبَ الأمانَ من الثَّأْر ، والحمايَة من الثَّائرين وهو يعلَمُ أن الله حامِيه ومُنْجِيه ، ولـكنه أحب أن يُعَلِّمَ الناس ، أن يستعينوا على قضاء حوائجهم ، وفكِّ كروبِهم بالدعاء .

وفى فاتحة القرآن ، علَّمنَا الله ، أن ندعو ، ونعبد ، ونستعين بالله .

ربِّ : إنى قتلْتُ منهم نفساً ، فأخاف أن يقتلونى .

وطلب المعونة على المهمة الشاقة ، وهو يعلم أن الله مُعينُه ومُقَوِّيه ، ولـكنه تعليمٌ للناس ، ألا تَغُرَّهم قُواهم ، فيَتصَدَّوْا للعظائم ، من قبل أن يُعِدُّوا العُدَّة ، ويشحذوا القوة ، ويلتمسوا المدد .

ربِّ اشرحْ لى صدرى ، ويسِّرْ لى أمرى ، واحلُلْ عُقْدةً من لسانى ، يَفْقَهُوا قولى .

وأخى هارون ، هو أفصحُ منى لساناً ، فأرسلْه مَعِىَ رِدْءا يصدِّقُنى .

* * *

ولأمرٍ ما ، طلب موسى من ربه ، أن يجعل هارون أخاه وزيراً له فى دعوته ؟ أكان ذلك للعَطَب الذى عَطَبَ لسانَه ، يوم همَّ فرعونُ بقتله ، فاستشفعتْ فيه امرأة فرعون ، وقالت : إنه صبىٌّ صغيرٌ لا يعرف التَّمر من الجمْر ، وأَبَى فرعون بحماقته إلَّا أن يَعْرِضَ عليه تَمْرةً وجَمْرة ، وشاء الله ، أن يمُدَّ يده على الجمْرة ، ويقـذفها فى فمه ، فتعطَّبَ لسانُه وتخلَّفَتْ فيه عاهةُ اللَّثْغة ؟

أم كان ذلك لأن موسى ، وهو فى جبل الطور ، يوم ناجاه ربه ،

تجسَّمت له مسئولية الرسالة إلى ناسٍ فراعنة ، يتزعَّمهم فرعون الطاغية ، ولابد له من سَنَدٍ ومُعين ، يشدُّ أَزْرَه ، ويُقَوِّى ظهره ، ويكون فى الشدائد رِدْءَه ، وليس مَنْ يَصْلُح لهذا إلا أخوه ؟

أم كان ذلك ، لأن موسى يعلم وهو فى جبل الطور ، أن هارون يقيم بمصر بين القوم فهو أدرى بهم ، وأبْصَرُ بأحوالهم ، وأخْبَرُ بالطريقة التى تُوصِّل إلى قلوبهم ، وباللسان الذى يستميل عواطفهم وإحساساتهم ، فهو لهذا أقوى وأقدر على إقناعهم ، وهو لهذا يكون أفصح لساناً من موسى ؟

أم كان ذلك ، لأن موسى يرى أنه حريصٌ أول الأمر على إيمان أخيه هارون ، وعلى تصديقه برسالته ؟ وكذلك كان يفعل الأنبياء من قبلُ ومن بعدُ ، حيث كانوا يبدءون بدعوة أهليهم ، وبأقرب الناس إليهم ، وحتى لا يكون بُعْدُ هارون عنه ، أو تكذيبُه إياه ، مُثَبِّطاً لهمَّتِه ، مُخَضِّضًا لشوكته ، فيستهلك قوته بين أهله وقومه ؟

ويا موسى لا تخفْ ، فهـذا هارون معك ، يؤمن بك ، وقد أشركناه فى أمرك ، وقد أَلْهَمناه أن يخرج من مصر إليك فى جبل الطور ، ليكون فى معِيَّتِكَ ، وليـكون وزيرَك وسنَشُدُّ عَضُدَك بأخيك ، ونجعلُ لـكما سلطاناً ، فلا يصِلُون إليكما بآياتنا ، أنتما ومن اتبعكما الغالبون .

اذهبْ أنت وأخوك بآياتى ، ولا تَنِيَا فى ذِكْرِى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لَيِّناً ، لعلَّه يتذكَّر ، أو يخشى .

اذهبْ إلى فرعون إنه طغى ، فقلْ : هل لك إلى أن تَزَكى ،

وأهْدِيَك إلى ربك فتخشى ؟ . كلا ، فاذهبا بآياتنا ، إنا معكم مستمعون ، فأْتِيَا فرعون ، فقولا : إنا رسولُ رب العالمين .

* * *

ميدانُ لسان ، ومعركةُ أديان ، وأسلحةُ الدليل والبرهان ، وسَنَدٌ من الرحيم الرحمٰن . وسلطانٌ لموسى أىّ سلطان ،

ولـكنْ كما قال القرآن ، وجادِلْهُمْ بالتى هى أحسن . قَوْلٌ ليِّن ، ودِين بيِّن ، وأُسلوبٌ هيِّن ، لعلَّه يتذكر أو يخشى ، والله يهدى من يشاء .

* * *

وقال موسى : يافرعون . إنى رسولُ ربٍّ العالمين ، حقيقٌ على ألَّا أقولَ على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم ، فأرسلْ مَعِىَ بنى إسرائيل . وأَعْتِقْهم من عُبوديتك ، وارحمْهم من بطشك ، ولا تَحْجُرْ عليهم ، فتحرمهم من اتِّباع الدِّين الذى أدْعُو إليه .

* * *

قال فرعون : وما ربُّ العالمين ؟ قال موسى : ربُّنا ، ربُّ السموات والأرض ، الذى فَطَرهُنَّ ، قال فرعون : لِمنْ حوله : ألا تستمعون ؟

قال موسى : ربُّنا ، ربكم وربُّ آبائكم الأولين .

قال فرعون لمن حوله : إن رسولـكم الذى أُرسل إليكم لمجنون .

قال موسى : ربّنا ، ربّ المشرق والمغرب ، وما بينهما ، إن كنتم تعقلون .

قال فرعون لموسى : لئن اتخذتَ إلهاً غيرى ، لأجعلنَّك من المسجونين .

قال موسى : أَوَلَوْ جئتُك بشىءٍ مبين ؟

قال فرعون : فأْت به ، إن كنتَ من الصادقين .

فألْقى موسى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده ، فإذا هى بيضاء للناظرين .

قال فرعون للملأ حوله : إن هذا لسِحْرٌ مُبين ، وإنه لساحرٌ عليم ، يُريد أن يُخرجكم من أرضكم ، بسحره ، وما جاء ، إلا ليَلْفِتَنَا عمَّا وجدنا عليه آباءنا ، وإلا لتكون له ولأخيه ، الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لهما بمؤمنين .

فماذا ترون ؟ وماذا تأمرون فى هذيْن الساحرين .

قالوا : أرجِئْهُ وأخاه ، وابعثْ فى المدائن حاشرين ، ليأتوك بالسحرة العالمين .

وجُمِعَ السَّحَرة ، وتجمَّع الخلق ، ليشهدوا أىَّ السِّحْرَيْن أقوى وأصدق ، وليعلموا أىَّ السَّحَرةِ أغلب .

وطمِع سَحَرَةُ فرعون فيه ، وفرَضُوا أجْرهم عليه ، واشترطوا رَفْع شأنهم لديه ، وموسى ثابتٌ لا يتزعزع ، مستيقنٌ فى نصْر ربه ، ينظر إلى كفرهم وباطلهم .

ويقول لهم : أَلْقُوا ما أنتم مُلْقون .

فألْقَوْا حبالهم ، وعصيَّهم ، وقالوا : بِعِزَّةِ فرعون ، إنَّا لنحن الغالبون .

وألقى موسى عصاه ، وقال : بِعِزَّةِ الله . الذى لا إله سواه ، نعبُده

ونخشاه ، والوَيلُ لِمنْ كابَرَ وعصاه ، وعَصَى نِدَاءَ الله ، وألْقى عصاه ، فإذا هى حيةٌ تسعى ، تلْقَفُ وتلْتَهِم ما يدَّعُونَ ويَأْفِكُون .

* * *

وذَهِل فرعون ، وبَرَدَتْ حماسته ، وانطفأت شعلته ، وأُسْقِط فى يده ، لما رأى السَّحرة ، خروا ساجدين مُسْلِمين لموسى ، ويقولون : آمنَّا برب العالمين .

* * *

معركة أدْيان ، بأَسلحة الدليل والبرهان ، وبمَدَدٍ من الرحيم الرحْمٰن .

وطاش سهم فرعون ، وخسر المعركة ، وتزعزعت ثقة الناس فيه ، وكفروا بألوهيته ، وفكروا فى موسى ودينه وقوّته ، وانْحاز المفكرون إليه ، وخشِىَ المستضعَفون إنْ اتبعوه ، أن يبطش بهم فرعون وجنوده ، إنهم كانوا قوماً فاسقين .

* * *

ووقف فرعون يزْأَر ولا زئِير ، ويتوعَّد السَّحرة ولا وعيد ، ويحلف ولا أَيْمان له أنه سيقتلهم ويُصَلبُهم ، ويقطع أيديَهم وأرجلهم من خِلافٍ ، وسيجعلهم عِبْرةً للناس .

* * *

وما كان قولَهم إلا أنْ قالوا : لا ضَيْرَ علينا من غضبك ، ولا يُخيفنا تهديدُك ، إنا إلى ربنا مُنْقلِبون ، إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ، لأننا سنكون أوّلَ المؤمنين .

* * *

واشتد الغيظ بفرعون ، فالتفت إلى موسى ، يُعَيِّره بفضله عليه ، و بتربيته فى حِجْره ، و بين يديه ، وعلى عَيْنَيه ، ويقول له : ألم نُرَبِّك فينا وَلِيداً ، ولَبِثْتَ فينا من عمرك سنين ؟ ويُهدِّده بالثأر القديم ، وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التى فعلْتَ ، وهربْتَ وفرَرْتَ ، وأنت من الكافرين .

وقال موسى : يا فرعون . ربِّى سبحانه الذى ربَّانى ، وعلى عينه صنعنى وحمانى ، وفرض حياتى عليك ، فى بيتك على رَغْمِك ، وملأ بمحبتى قلب امرأتك ، فكانت حِمَايَ من بطشِك ، يوم كنتُ شَجًى فى حَلْقِك ، وقَذًى فى عينك ، وما مِنْ ساعة ، إلا كنت أنا فيها مُهَدَّداً بغَدْرِك ، لولا عينُ الله كانت ترعانى وتحرسُنى منك ، وتدفع عنى أذَاك .

فجعلنى الله عُقُوبَتَك ، وسَوْطَ عذابك ، جزاءَ ما قتلتَ من أبناء شعبك ، وذبحْتَ أطفالاً أبرياء ، لا حول لهم ولا لأمهاتهم قِبَلَك ، ولا ذنبَ جَنَوْه ، ولا جُرْماً أجرموه .

ويا فرعون . فَعلْتُ فَعْلَتِي هـذه ، وقتَلْتُ المُعْتدِى ، وما نَويْتُ ، وإنما كنتُ أنصرُ مظلوماً على ظالم ، وكان أحمقَ طائشاً من جُندك ، الذين طَغَوْا بطغيانك ، وبَطِرُوا على الناس بسلطانك ، فأَغريتَهم بالضعفاء ، حتى استذلُّوا الأحرارَ الأبرياء .

ويا فرعون . كانت فَعْلَتِي نَزْوَةَ شباب ، وغَيْرَةً حَمْقَى على أحْباب ، يوم كنتُ غضَّ الإهاب ، لم أَشْرُفْ بعدُ برسالةِ العليم الوهَّاب !

* * *

وأىُّ صَبْرٍ للطاغية ، وأىُّ أمَانٍ له على مُلْـكِه مِنْ هذا الدَّاعِية ؟

وأىُّ بقاءٍ لدِينِ الحماقة والجهل والقوة ، أمام دِين السَّلامِ والعلم والهداية . وبين الدِّينَيْن تَنَازُعٌ فى البقاء ، ولا بَقَاءَ إلا للأصلح ، وفرعون بعينيْه يرى النور يمسح ظُلْمَتَه ، ويكشف مِلَّته ، ويزعزع من أركانه ، ويهدُّ من سلطانه .

وإذن فلابد أن يَرفعَ السَّوْط ، ويستلَّ السيف ، ويشق بطن الأرض ، ليُخْفِيَ فيها موسى ودينَه ، تأميناً لـكبريائه ، وضماناً لمُلْـكِه .

* * *

ودارت المعركة من جديد ، بين مُعَسْكر فرعون وأجنادِه ، وبين موسى ودِينه ، فعاد فرعون من جديد ، يصُبُّ العذاب على بنى إسرائيل ، ويُذيقهم النَّكال ، ويُضيِّق عليهم الخناق ، ويُدَبِّر ويفـكِّر هو وأعوانُه ، ليقتل أبناءهم ، ويَسْتَحْيي نساءهم .

ويرُوحُ بنو إسرائيل إلى موسى ، يفزَعون إليـه ، ويُلْقُون المسئولية عليه . ويقولون : ياموسى : قد أُوذِينَا من قبلِ أن تأتينَا ، ومِنْ بَعْدِ ماجِئتَنا ، فأين ماوعدتَنا من حِمَايتنا ، وكفِّ الأذى عنا ؟

لقد كاد يُهْلِـكُنا ، ويقطعُ دابرَنا .

* * *

وموسى بين شِقِّى الرَّحَى ، بين فرعون وعِنَادِه ، وبين أهله الذين ضَجُّوا من أجنادِه ، فلا يملك موسى إلا أن يُصَبِّرَهم ويُواسِيَهم ، ويدعوهم

إلى التجلُّد ، ثم يتجه إلى الله ، فيسأله العونَ على فرعون ، ويسأله النجاةَ لبنى إسرائيل .

* * *

وفرعون سادِرٌ فى غَيِّه ، راكبٌ رأسَه ، زاحِفٌ وراءَ شيطانه ، جامِحٌ به غرورُه ، معْتَزٌّ بجاهِه ، يقول لِمَنْ حوله : ياقوم . أليس لى مُلْكُ مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ أفلا تبصرون ؟ أم أنا خيرٌ من هذا الذى هو مَهِينٌ ولا يكاد يُبِين . فلولا أُلْقِىَ عليه أَسْوِرَةٌ من ذهب ، أو جاء معه الملائكة مُقْتَرِنين ؟

ياقوم ، ماأَطْوَلَ ماصبَرنا على عدوِّنا ؟ أفلا نُرِيحُ أنفسَنَا من هذا الذى تطاول علينا ؟ وسوف لايكُفُّ حتى يُغَيِّر دينَنا ، ويُسَفِّه أحلامنا .

فلما جاءهم الحقُّ من عندنا ، قالوا اقْتُلوا أبناءَ الذين آمنوا معه ، واسْتَحْيُوا نساءهم . وقال فرعون : ذَرُونِى أقتلْ موسى ، ولْيَدْعُ ربَّه ، إنى أخاف أن يُبَدِّلَ دينكم ، أو أنْ يُظْهِرَ فى الأرض الفساد .

* * *

وللحَقِّ أَشِعَّة ، تنفُذُ إلى القلوب السليمة ، والعقول الحكيمة ، فتضيئُها وتُفْعِمُها بالنور ، وكذلك تسرَّب نورُ الإيمان إلى بعضٍ من قوم فرعون . فآمنوا ، ولكنهم لخوفهم من سيف الظلم المُصْلط على رقابهم ، أخْفَوْا إيمانَهم وكَتَمُوه ، وقال رجلٌ مؤمن من آل فرعون ، يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا ، لأنه قال : ربِّىَ الله ، وجاء بالدليل الواضح ، والبيِّنة الساطعة ؟ جاءكم بمُعجزات تُعجز البشر . ولا تكون إلا عن قدرة فوق طاقة العالمين ؟

وإنْ يكُنْ كاذباً ، فعليه كذبُه ، وإنْ يكنْ صادقاً ، يعود عليكم بعض الخير من دعوته ، وإن كان مسرفاً فى قوله ، فإن الله لا يهديه ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار .

وقال هذا المؤمن ، الذى يكتم إيمانه لفرعون ومَلَئِه : ياقوم ماذا تخافون ؟ فهذا مُلْكٌ واسعٌ عريض ، وهذه عظمتكم ظاهرة فى بقاع الأرض ، فلئن ضَمِنْتم هذه الدنيا ، أفتضمنون هذا كله فى الآخرة ؟ أو ينفعنا كل هذا ، أو يدفع عنا عذاب الله إن حلَّ بنا ؟

ولكن فرعون ، صمَّ أُذنيه ، وأغمض عن الحق عينيه ، وقال : لا رَأْىَ إلا ما رأيتُ ، وإن هذا ، لَهُوَ الرأىُ الرشيد الحكيم .

ما أُرِيكُمْ إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد .

وعاد المؤمن الذى يستر إيمانه ، يُنذرهم ويُحذِّرهم ، ويقول لهم : ياقوم . إنى أخاف عليكم يوم التَّنادِى ، يوم الآخرة ، يوم تُوَلُّون مُدْبِرين ، ما لكم من الله عاصم . وياقوم . مالى أدعوكم إلى النجاة ، وتدعوننى إلى النار ؟ تدعوننى لأكفر بالله ، وأُشرِك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ؟

لا جَرَمَ أن ما تدعوننى إليه ، ليس له دعوة فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، وأن مردَّنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

* * *

وفرعون ، هو فرعون ، لا ينسى عناده ، ولا يتنازل عن كبريائه ، يقول ويقول ، ويهدِّد ويتوعَّد ، ويُمْعِن فى إيذاء بنى إسرائيل ، حتى نَفِدَ صبرهم وجَأَرُوا بالدعاء إلى ربهم ، واستغاثوا بموسى نبيهم ، من سخط فرعون النازل بهم .

فاستجاب الله دعاء موسى ودعاءهم ، وأخذ فرعون وقومَه ببعض ذنوبهم ، فنزع البركة من مالهم ، وسلَّط الأمراض عليهم ، فنقص عددُهم ، وبَخِلَ النيل عليهم ، فانحسر ماؤه عنهم ، وأجْدَبَتْ أرضهم ، ونَشِف زرعهم ، وعَطِبَتْ ثمارهم ، وزحف الجراد عليهم ، وتقَذَّرت أجسامهم وثيابهم ، وتواجد القُمَّل فيهم ، ، وبان عليهم ، وملأ عليهم فراشهم ، فأقلق مضاجعهم ، وطنَّ نقيق الضفادع فأصمَّ أذانهم ، وعكَّر أمزجتهم ، وانبثَّتْ الضفادع فى دورهم ومساكنهم وسال دم الرُّعاف من أنوفهم ، وانحلَّتْ حَيَوِيَّتُهم .

ولما وقع عليهم الرجز ، تخاذلوا تخاذُلَ اللئام ، الذين يخافون ولا يستحون وذلُّوا ذُلَّ العبيد ، الذين لا يستقيم حالهم ، ولا يُرجى خيرُهم ، إلا حين يُسَامُون سُوءَ العذاب .

وقالوا : ياموسى . ادعُ لنا ربَّك بما عَهِدَ عندك ، لئن كشفتَ عنا الرجز ، لنؤمِننَّ لك ، ولنُرسلنَّ معك بنى إسرائيل .

فلما كشفنا عنهم العذاب ، إذا هم يَنْكُثُون ، وينقُضون العهد ، وينسَوْن التذلل ، وعادوا فى غَيِّهم وطغيانهم يَعْمَهُون ، وفى الكيد لموسى يَفْتَنُّون ، وفى إرهاق بنى إسرائيل يتبارَوْن ويتسابقون .

يا هامان ، ابن لى صَرْحاً ، لعلى أَطلِعُ إلى إله موسى ، وإنى لأَظنُّه من الكاذبين .

* * *

وأوحينا إلى موسى ، أن أَسْرِ بعبادى ، إنكم مُتَّبَعُون ، وأَنْ هاجِرْ بهم يا موسى ليلا ، فإن القومَ يُتابعونكم ، ويُبَيِّتُون النيَّة على قتلكم وإبادتكم .

* * *

وجمع موسى أهله ، والمؤمنين بدينه ، وخرج بهم إلى الشرق .

وللشرق حنين ، وفيه الأرض المقدسة ، والبقعة المباركة . وفيه جبل الطور ، وفيه تَلَقَّى موسى الوَحْىَ بدينه ، فإلى هناك .

ولكنَّ أسْلَمَ طريق ، هو أقصر طريق ، وأقصر طريق إلى البحر ، فإلى البحر .

والبحر الأحمر عريض ، وغَوْرُه بعيد ، فوقفوا على شاطئه حائرين ، لا يدرون ماذا يفعلون . والتفتوا وراءهم ، فإذا فرعون والكفار مُحْتشدون ، وفى آثارهم يَجِدُّون .

وليس من مَلجإٍ إلا إليك يا أَلله ، فقد انزعج بنو إسرائيل من هوْل المأْزِق وتشبَّثوا بموسى ، يسألونه مَخْرجاً وخلاصاً من هذه الحبْسة بين البحر وفرعون .

ولجأ موسى إلى ربه يسأله ، فأوحى إليه : أن اضْرِبْ بعصاك البحر ، فضرب ، فانفلق ، إلى ممرات كأنها شوارع ذاتُ جُدران وحوائط ، فكان كل فِرْقٍ كالجبل العظيم . إلى اثنى عشر ممراً ، ونزل كل فريق فى طريق ، فكانوا اثنتى عشرة أسباطاً أُمماً .

وساروا مسرعين يعبرُون البحر ، حتى إذا وصلوا إلى نصف الطريق ، كان فرعون وجنوده قد وصلوا إلى الشاطىء ، فنزلوا وراءهم ، ليلحقوا بهم ، حتى إذا وصل فرعون إلى نصف الطريق ، كان موسى وقومه قد وصلوا إلى الشاطىء الآخر ، فأوحى الله إلى موسى ، أن اضربْ بعصاك البحر ، فضرب ، فانطبق الماء عليهم وأغرقهم .

وجاوزْنا ببنى إسرائيل البحر ، فأَتْبَعَهُمْ فرعونُ وجنوده بَغْياً وعَدْواً ، حتى إذا أدركه الغَرَق ، قال آمنْتُ أنه لا إله إلا الذى آمنَتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين .

فقال له موسى : إخْسَأْ يا فرعون . آلآن ؟ أفى هذا الوقت ؟ أفى الغَرَق ؟ وانقطاع الأمل ، وإزهاق الروح ، وذهاب قُوَّتك ، وساعة تأكد لديك أن قوة الله أغْلَبُ من قُوتك وأن سلطان الله يَمْحَقُ سلطانك ؟ آلآن يا فرعون ، تؤمن بربك ، وتنطق بالشهادة ، وتدّعى الإسلام ؟

يا فرعون . لا عاصم اليوم من أمر الله ، وسيجعلك عِبْرَةً ومَوْعظة للطغاة الظالمين ، يا فرعون سيُنَجِّى اللهُ بَدَنَك ، بعد أن يُهلِك رُوحَك . وسيُبْقِى هذا الجسد طويلا ، جسد العملاق الباغى ، لتكون لِمنْ خَلْفَك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون !

* * *

نجا قومٌ ، وهلك قوم ، نجا المؤمنون ، وهَلَك الكافرون ، نجا موسى وبنو إسرائيل المستَضعَفون ، وهلك فرعون وأجناده وأعوانه الطاغون ، وكان

البحر حدًّا فاصلاً بين الحق والضلال . وكانت سَكْتَةٌ من سَكَتَات الزمن ، صَمَتَ فيها على أثر تلك الحوادث الجسام .

وسكن الرَّوْع ، واطمأنت النفوس ، وصدق وعد الله ، وأقام موسى وبنو إسرائيل . فى بَرَاحٍ من الأرض ، وسَعَةٍ من الرزق .

فلما كشفْنا عنهم العذاب إلى أجلٍ هم بالِغُوهُ ، إذا هُم ينكُثُون .

وأداروا وجهَهم إلى موسى ، يسألونه ، أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه ، كما لهؤلاء القوم الذين من حولنا إله .

وجاوزْنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوْا على قومٍ يَعْكُفُون على أصنامٍ لهم ، قالوا يا موسى اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قومٌ تجهلون ، إن هؤلاء ، متبَّرٌ ما هم فيه ، وباطلٌ ما كانوا يعملون ، قال : أغيرَ الله أبْغِيكُمْ إلهاً ، وهو فضَّلكم على العالمين ؟ وإذْ أنجيناكم من آل فرعون ، يسُومُونكم سُوءَ العذاب ، ويقتِّلون أبناءكم ، ، ويستَحْيُون نساءكم ، وفى ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم .

وعادوا يسألون موسى : يا موسى ؟ ألِهذا الدِّين الذى تدعونا إليه دُسْتُور ؟ ألَهُ كتاب ؟ وما كُنْهُ هذا الدِّين ؟ وما حدوده التى نعيش فى نطاقها ؟ توضِّح لنا الطريق ، وترسُم لنا المعالم ، وتُجنِّبُنا الخطيئة ، وتقينا الزلل .

يا موسى لقد رأينا بأعيننا مصارع القوم الذين ضلُّوا ، والذين لمْ يفتِّحوا أعينهم على نور الهداية الربانية ، أفترضى لنا نحن قومك ، أن نسير على غير هدى ؟ فنضلَّ كما ضلُّوا ؟

يا موسى اسألْ ربك ، يُبَيِّنْ لنا حدود هذا الدِّين فى كتابٍ نقرؤه ونتبعُه .

* * *

وسأل موسى ربه ، أن يمنح قومه كتاباً ، فيه دِين .

فوعده ربه ، أن سيُؤتيه الكتاب ، بعد أن يُعِدَّ نفسَه لتَلَقِّى هذه الأمانة ، وأن يصوم ويتطهَّر ثلاثين يوماً ، فى شهر ذى القعدة ، فصام وتطهَّر ، حتى حان الميعاد والميقات ، اختار من قومه سبعين رجلا ، ليرافقوه فى هذا الميعاد ، وفى تلَقِّى هذا الوحى ، ولكن موسى لم ينتظرْ إخوانه ، حتى يخرجوا معه إلى جبل الطور ، فى البُقْعة المباركة ، وتعجَّل فسبقهم يلقَى ربه قبلهم ، فسأله ربه : وما أَعْجَلَك عن قومك يا موسى ؟ قال : هم أولاءِ على أَثَرِى ، وعَجِلْتُ إليك رَبِّ ، لترضى .

فأُمِر بالانتظار والتريث عشرة أيام أُخرى ، حتى يأتى السبعون المختارون ، وليشاركوه فى تحمُّل أعباء رسالته .

وواعدْنا موسى ، ثلاثين ليلة ، وأَتْمَمْناها بعشر ، فَتَمَّ ميقاتُ ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون اخْلُفْنى فى قومى وأَصْلِحْ ، ولا تتَّبِعْ سبيلَ المفسدين .

ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلَّمه ربه ، كلاماً سمعه من كل جهة ، بجسمه وروحه ، وعقله وحواسِّه ، فهو اتصالٌ كُلِّى ، ثم تجسَّم فى نَفْس النَّبى ، فنطق به إملاءً من هذا الاتصال ، وكلَّم الله موسى تكليما مباشراً ، من غير وساطة جبريل ، بريدِ الله إلى الأنبياء .

وليس عجيباً أن يسأل موسى ربَّه ، أن يَظْهَرَ له فيراه ، فإبراهيم من قبلُ ، سأل ربه : ربى : أرنى كيف تُحْيِي الموتى ؟ وموسى نفسُه ، سأله قومه : أرِنَا الله جهرةً .

* * *

تلك طبيعة الإنسان ، حتى فى نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، طبيعةُ حُبِّ الاستطلاع ، واللَّهفة على المجهول ، والحَيْرَةِ فيما هو مخبوء وراء حُجُب الغيب ، « لا تحرِكْ به لسانك لتعجل به » .

* * *

وقال الله لموسى ، لن ترانى ، فإنك لم تَقْوَ بَعْدُ ، ولم تتهيأْ لرؤيتى ، وطاقتُك محدودة ، وسأُريك يا موسى بعضَ آثار قدرتى ، ولعلك تُطِيق .

انظرْ إلى الجبل ، فإن استقرَّ مكانَه ، فسوف ترانى . فلما تجلَّى ربُّه للجبل ، بجلاله وكماله ، ورَهَبُوتِه وجَبَرُوتِه ، اندَكَّ الجبل ، وغاص فى الأرض ، فغُشِيَ على موسى ، من هوْل ما رأى . وأخذتْه رهْبـةُ الموقف ، وغاب فى ملـكوت الله ، وخَرَّ على وجهه ساجدا لله ، مُقِرًّا مُذْعِناً لرَحَمُوتِ الله ، حتى إذا أفاق ، قال : سبحانك يا ربى تُبْتُ إليك من قَلَـقِى وحَيْرتى ، وأنا أول المؤمنين .

وقال الله يا موسى : إنى اصطفيتك على الناس ، برسالاتى وبكلامى ، فخذْ ما آتيتُك ، وكنْ من الشاكرين . وكتبْنا له فى الألواح من كل شىء مَوْعظةً وتفاصيلَ الأحكام ، وتعاليمَ الدِّين ، وكانت هى التوراة ، الـكتاب

السماوىّ ، الذى أنزله الله على موسى ، وكان هو العهد القديم ، فى دِين النصارى ، ولقد آتينا موسى الكتاب والفُرْقان لعلكم تهتدون .

إنا أنزلْنا التوراة فيها ، هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيُّون والأحْبار ، بما استُحْفِظُوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شُهَداء .

وقال موسى لأخيه هارون اخْلُفْنِي فى قومى واصلحْ .

وكان لا بد لموسى ، يومَ خرجَ مع السبعين المختارين من قومه إلى جانب الطُّور الأيمن ، أن يُوَصِّى أخاه هارون بقومه ، يقوم مقامَه فيهم ، يوفِّق بينهم ، ويهدى ضالهم ، ويُصلح ما فسد من أمورهم ، وكان الموعد الذى حدَّده لغيبته عنهم ، ثلاثين يوما ، فلما أمره الله أن يُتِمَّهَا أربعين ليلة ، بقى فى الجبل ، وتأخر عن قومه ، وأخلف موعده ، قَلِقَ بنو إسرائيل ، وفى طَبْعِهم القلق ، وزاغَتْ نفوسهم ، وتزعزع بموسى إيمانهم ، وشاع فيهم الشائعات ، أن موسى ، أخلَفَ الوعد ، وطاب له العيش بالشام ، وأنه سوف لا يعود إليهم .

وظهر السامرى ، ذلك الرجل المثَّال ، صانع التماثيل ، فأذْكى فيهم رُوح القَلَق ، وعاد بهم سيرتَهم الأولى ، إلى عِبادة التماثيل والأصنام ، وجَمَع منهم ذهبَهم ، وصَهَرَه وصبَّه تمثالا ، على هيئة عجلٍ من بقر ، وركَّب فيه بحيلته ، وخفة يده ، وبما أطْلَقَه من بُخُور وحِيَل ، فجعله يُصوِّتُ كصوت العجول ، فأغراهم منظرُه ، واستلب عقولَهم خوارُه ،

فاتخذوه إلهاً ، وقالوا : هذا إلهكم وإله موسى .

وقال لهم هارون : يا قوم . إنما فُتِنْتُم به ، وإن ربَّكم الرحمنُ ، فاتبعونى ، وأطيعوا أمرى ، قالوا : لن نَبْرَحَ عليه عاكفين ، حتى يرجعَ إلينا موسى .

* * *

وعاد موسى إليهم ، ففزع لنَكْسَتِهم فى دينهم ، وارتدادِهم فى الكفر على أعقابهم ، والتفت إلى هارون ، وألقى الألواح ، وأخذ برأسِ أخيه ، يجرُّه إليه ، ويقول : يا هارون ، ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ، ألاَّ تتَّبعنى ؟ أفعصَيْت أمرى ؟

وقال هارون لموسى : يا أخى ، ويا ابنَ أمى وأبى ! بالله عليك أن تهْدأ ، ولا تؤذينى . ولا تأخذْ بلِحْيتى ، ولا برأسى ، إنى خَشِيتُ أن تقول فرَّقْتَ بين بنى إسرائيل ، ولم ترقبْ قولى . إذا أنا قاوَمْتُهم بالقوة ، وحَمْلتُهم على الدِّين بالإكراه .

قال : فإنا قد فَتَنَّا قومَك من بعدك ، وأضلَّهم السَّامِرِىّ ، فأخرج لهم عجلاً جسدا ، له خُوَار .

فرجع موسى إلى قومه غضبانَ أسِفاً ، قال يا قوم : بِئْسَ ما خَلَفْتُمونى من بعدى ، أفَطَال عليكم العهد ، أم أردتم أن يَحِلَّ عليكم غضبٌ من ربكم ، فأخلفْتُمْ مَوْعدى .

ياقوم . لقد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، واكسروا شِرَّتها وحِدَّتها ، وقوِّموا اعْوِجَاجها .

قالوا : يا موسى . ما أخلفنا مَوْعِدَك بمَلْكِنا ، ولكنا حُمِّلْنا أوزاراً من زينة القوم ، فقذفناها ، وكذلك ألْقى السَّامرى .

* * *

والتفت موسى إلى السامِرِىّ ، يسأله : ما خَبَرُك يا هذا ؟ فكان صريحاً جريئاً متبجِّحاً حين قال : بَصُرْتُ بما لم يَبْصُروا به ، وتعلَّمْتُ مالم يتعلموه ولقد عرفت المكان الذى نزل عليك الوحى فيه ، وعرفت أنه مبارك وأن ترابه يشتمل على قوة كامنة فيه ، فقبَضْتُ حِفْنَةً من هذا التراب ، وألقيتُها على الذهب المصهور ، وصَبَبْتُ منه تمثالا لعجلٍ من ذهب برَّاقٍ وهَّاج ، ونفخْتُ فيه ، فإذا هو عجلٌ له خُوار .

وما دفعنى إليها دافع ، إلا نفسى التى حسَّنتْ لى هذه الفكرة ، فنفَّذْتُها ، وعرضتُها على القوم ، فوقعوا فى شَرَكِها ، وفسقوا عن دينك ، وعبدوا العجل .

فدعا عليه موسى ، أن يعيش بقية عمره ، بغيضا مكروها من الناس ، لا يقربونه ولا يكلمونه ، وأوْعده يوم القيامة ، يحاسبُه ربه ، ويعاقبه ، جزاء ما أغْوَى الناس ، وضلَّلهم عن دينهم ، وسيحمِّله الله أوْزاراً قدر أوزارهم جميعا .

قال موسى للسامرى : فاذهبْ ، فإن لك فى الحياة ، أن تقول لا مِسَاسَ وإنَّ لك مَوْعِداً لن تُخلَفه ، وانظره إلى إلٰهك الذى ظَلْتَ عليه عاكفا ، لنُحرقنَّه ، ثم لننسِفَنَّه فى اليَمِّ نسفاً .

يا قوم : إنما إلٰهُكم اللهُ ، الذى لا إلٰهَ إلا هوَ ، وَسِعَ كلَّ شىءٍ عِلْما .

* * *

وقطَّعناهم اثنتىْ عشرة أَسْباطا أُمَما ، وقطَّعناهم فى الأرض أُمَما ، منهم الصالحون ، ومنهم دون ذلك . وبعثنا منهم اثنىْ عشر نقيبا ، وهم الأسْباط ، يقومون فيهم على هدايتهم ، وإصلاح حالهم .

وشاءت إرادةُ الله أن يُتمَّ نعمتَه عليهم ، ويبْسط الأرض الفسيحة ، وأوحى الله إلى موسى ، أن اضربْ بعصاك الحجر ، أىَّ حجرٍ ، تنفجرْ منه عيون الماء ، ليرتوىَ قومُك العِطاش فى هذه الصحراء الجدباء .

فانْبَجَسَتْ منه ، اثنتا عشرة عينا ، قد عَلِم كل أُناسٍ مَشْرَبهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوْا فى الأرض مفسدين .

وأَغْدَقَ الله عليهم نِعَمَهُ وفضله ، فساق إليهم الغمام ، يظلِّلهم ، ويقيهم ، وَهَجَ الشمس ، ولفح القيظ ، وأَنزل عليهم فاكهة التُّرنْجين ، وساق إليهم مع الرياح طيور السَّمانَى ، طعامٌ من الفاكهة ومن الطير ، خيرُ طعام ، وأنزلْنا عليكم المنَّ والسَّلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وبعث عليهم عمودا من نور يضىء لهم ظلام الليل ، ولعله كان نهراً من أنهار المجرَّة ، ومجموعة من مجموعات الكواكب ، التى تظهر فى السماء . وأكرمهم ، فكانت ثيابهُم لا تتسخ ولا تبلَى .

ولكنهم بَطِرُوا بهذه النعم ، وزهدوا فى هذا النعيم ، وسئِموا الإعزاز

بعد الذلة ، فإنهم ما تعوّدوا التكريم ولا التعزيز ، وإنما عاشوا تحت الضغط ، ورُبُّوا فى الهوان .

وقالوا يا موسى : إنا لن نصبر على طعامٍ واحدٍ ، فادْعُ لنا ربَّك يُخْرِجْ لنا مما تنبت الأرض من بَقْلِها وقِثَّائها وفُومِها وعَدَسِها وبصلها .

وعجب موسى من ذَوْقِ هؤلاء الناس ، وانحراف مِزاجهم وتَدَنِّيهم حتى فى الطعام ، وقال : أتستبدلون الذى هو أدنى وأدنأ ، بالذى هو خيرٌ وأطعم روحوا إلى مصر ، وأىُّ بلدٍ زراعيةٍ مصرُ ، فأفلحوا الأرض ، وازرعوها واستنبتوها ، وكلوا منها : بَقْلًا وقِثَّاءً وفولًا وعدسا وبصلا ، وأَشْبِعُوا أجسامكم ، واملئوا بطونكم ، واجترُّوا كما تجترُّ بهائمكم ، وستُغطِّى أبخرةُ هذه الأطعمة الغليظة على أفهامكم ، وستَفْتُر هممُكم ، وتنحطُّ مَعْنَوِيَّتُكُمْ ، وسيَخْمُلُ ذكرُكم ، وتعودون إلى الذلة والهوان ، وستعيشون مساكين ، فى غضب الله ، الذى منحكم السُّمُوَّ والرفعة ، فلا تسمون ولا ترتفعون .

وضُرِبَتْ عليهم الذلَّة والمسكنة ، وباءوا بغضبٍ من الله .

* * *

ولم يَرْضَ موسى أن يترك فرصة ، يدلهم فيها على الخير ، والتسامى فى الحياة . إلا عرضها عليهم ، ولكنهم عبيدٌ أذلَّة ، يَدَعون الفُرَصَ تفْلِت من بين أيديهم وهم لا يشعرون .

عرض عليهم ، أن يدخلوا الأرض المقدسة ، وقال لهم : تعالَوْا إلى بيت المقدس مدينة الأنبياء والمرسلين ، ومنبع الرسالات ، وهى الأرض الطيبة

المباركة . وفيها الأمن والدَّعة والسلام والاستقرار ، وكلوا منها حيث شئتم رغدا ، وادخلوها شاكرين نعمة ربكم ، حامدين ساجدين ، وحُطُّوا فيها رحالكم ، واهْدَأوا بعد حياة الارتحال والتنقل فى الفيافى والقفار ، وانصرفوا إلى العبادة والتطهر من أرجاس الحياة القلقة التى لا نظام فيها ولا قانون يربطها وعيشوا عيشة التمدن والتحضّر ، نغفرْ لكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين .

ولكن النفوس الواطية الضعيفة المنحلة ، التى اندمغت بدامغ العبودية ، واندبغت جلودها بدابغ الاستعباد والاستذلال ، لا تتسامى ولا تنهض ، ولا تتذوّق الإعزاز ، ولا تستطعم الإسعاد ، وتتشبث دائماً بالحمأ والطين وتستمرئ التدنِّى فى الحياة ، كذيل الكلب ، تراه دائماً ملويا فإذا ربطته على عصا ليستقيم ، استقام ما دام مشدوداً مضغوطاً ، فإذا حللناه ، عاد ملويا على عادته وخِلقته .

وكذلك بنو إسرائيل ، يعرض عليهم موسى ، الذى أعتق رقابهم من فرعون ، ووهب لهم حياة الكرامة بعد أن قتلت نفوسهم ، وانحلت هممهم ، وأقام معهم زماناً فى الصحراء ، ليعوِّدهم حياة الخشونة والنخوة ، ويعودهم على حياة الفروسية والهمَّة ، وليبدلهم بالذل عزا ، وبالفقر غنى ، وبالشقاوة راحة ، ثم يدعوهم إلى حياة الحضارة وتكوين الدولة ، والانخراط فى سلك الإنسانية الرفيعة ، إذا هم يتخاذلون ويتقاعسون ، أمام رجلين اثنين ، مهما كانا قويين .

يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ، التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم ، فتنقلبوا خاسرين .

قالوا يا موسى : إن فى بيت المقدس ، قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها ، حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون الله ، ومن خاف الله واتقاه ، خافه الناس ، لاعتماده على الله ، واعتصامه بقوة الله ، وقد أنعم الله عليهما بقوة التدين ، ادْخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه ، فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين .

وهل ينفع الطَّرْق فى حديد بارد ؟ وهل تعود الحياة إلى قلب ميت ؟ وهل يتحول خَبَث الحديد ، فيصير ذهبا ؟ ومن كان فى جميزة أصله ، لا ينبت التفاح فى فرعه . وأين الأدب فى الحديث إذا حدثتَ سافلا ، وأين عرفان الجميل إذا ذكرت جاحداً ناكرا ؟ .

ففى لجة وبَجَاحة ، يردون على موسى يقولون : إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهبْ أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون .

وماذا يصنع موسى فى هؤلاء ، إلا أن يدعهم ويدعو عليهم ، ويتجه إلى ربه ضارعاً مستنجدا : ربِّ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين . وقال الله مستجيباً دعوة موسى : إنها مُحرَّمةٌ عليهم أربعين سنة ، يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الكافرين .

* * *

وفى القرآن الكريم ، كثير من الآيات ، تذكِّر بنى إسرائيل بنعم الله .
يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتىَ التى أنعمتُ عليكم ، وأنى فضلتكم على العالمين ،
يا بنى إسرائيل اذكروا ، واذكروا ، ولكن !

لقد أسمعتَ إذْ ناديتَ حيًّا ولكنْ لا حياة لمن تنادى

فكثرت مساويهم ومخازيهم ، حتى فى أتفه الأمور ، وأهونها على أنفسهم ، فلقد كانوا ، أيام أنْ كان فيهم بقيَّة من إيمان ، يُخصِّصون يوم الجمعة لعبادة الله ، يتفرغون فيه من العمل ، ويخلصون من مشاغل الدنيا للعبادة ، وأقرّهم موسى عليه ، ثم نكصوا عن يوم الجمعة ، واختاروا يوم السبت ، يسبتون فيه ويتنسكون . وأقرهم موسى عليه ، فكانوا لا يعملون فيه ، ولا يمدون أيديهم إلى شيء ، حتى لو برز لهم السمك من الماء ، وأطل عليهم بأعناقه ، ولعب تحت أيديهم وأرجلهم .

فكانت تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، وكذلك الحمام فى الحرم المدنى ، يحط بين الناس ، وهو آمن مطمئن ، فهو قد رُبِّى على ألا يمسه أحد بسوء .

وبنو إسرائيل ، هم كما عهدناهم ، دينهم ليس عزيزاً عليهم ، لا يَزَعُ نفوسهم ، ولا يكبح جماحهم ، ولا يحول بينهم وبين أطماعهم ، وليس غريباً على اليهودى ، أن يحنث فى يمينه ، وأن يخلف فى وعده ، وأن يفرِّط فى شرفه ، إذا برق فى عينه بريق المال ، وزهت فى عينه المادة .

وتلك رذيلة ورثوها عن آبائهم ، أصحاب يوم السبت ، الذين خالفوا فيه الدين وتصيَّدوا السمك ، وأحلُّوا ما حرّم الله .

وليس صيد السمك ، جريمة نكراء ، تُغضب السماء ، ولكنها تكشف عن رجرجتهم فى دينهم ، وتخلخل عقيدتهم .

فقال الله لهم : كونوا قردة خاسئين ، قردة وأشباه قردة ، وبعض

بنى الإنسان ، تتغير نفسه ، فتتغير سحْنته وخِلقته ، ويَشْرُسُ طبعه ، ويَسْوَدُّ قلبه ، ويأكل الغِلُّ صدره ، فيبدو أشبه بصورة القردة ، وفى حدائق الحيوان نرى وجوه بعض القردة ، طِبْقَ صور بعض الناس .

فجعلناها نكالا لما بين يديها ، وما خلفها ، وموعظةً للمتقين .

* * *

وفى القرآن الكريم آيات ، تقص علينا جهلهم وجحودهم ، وتنطعهم ، نطاعةً تُحْنِقُ وتغيظ من يسمع أخبارهم .

فقد تنطَّعوا فى الأسئلة ، وأطالوا حبل المناقشة والمجادلة ، وضيَّقوا على أنفسهم حبل المشنقة ، حتى ضُرِب بهم المثل فى كل تعنُّتٍ وتزمُّت ونطاعة ، فيقال : لا تكنْ مثل بنى إسرائيل إذْ ضيَّقوا على أنفسهم يوم البقرة .

فلقد كان فيهم شيخ غنى ، وله ولد وحيد ، ورث كل ثروة أبيه ، فغار منه أبناء عمه ، فقتلوه ، وطرحوا جثته على باب المدينة ، ثم دخلوا على الناس صارخين باكين ، يطالبون بدمه ، ويدَّعون أنهم مصابون فيه ، ليكونوا أصحاب دمِه وثروته ، وبحثوا عن القاتل ، فلم يجدوه ، وراحوا إلى موسى يستفْتونه فيما يصنعون .

وإذْ قتلتم نفساً ، فادَّارأْتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون .

فأمرهم موسى : أن يذبحوا بقرة ، وأن يأخذوا لسانها ، ويضربوا القتيل به . فيحيا ، ويخبر عن قاتليه .

وقالوا : يا موسى أتتخذنا هزؤاً ؟ قال : أعوذ بالله ، أن أكون من الجاهلين !

قالوا : ادع لنا ربك ، يبين لنا ما هى ؟ وأى البقر نذبح ؟ فالبقر كثير.

قال موسى : سألت ربى . فقال : اذبحوا بقرة وسَطاً فى عمرها ، لا هى عجوز عجفاء ، ولا هى صغيرة خضراء ، فافعلوا ما تؤمرون .

قالوا : ادع لنا ربك ، يبينْ لنا ما لونها ؟

قال : إنه يقول : إنها بقرة صفراء ، فاقعٌ لونُها ، تسر الناظرين .

قالوا : ادع لنا ربك ، يبينْ لنا ما هى ؟ وما أوصافها ، وما اسم صاحبها إن البقر تشابه علينا ، وإنا إن شاء الله لمهتدون .

قال : إنه يقول : إنها بقرة ، لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، إنها بقرة مرتاحة ، لم ينهكها العمل ، ولم يُنحلها التعب ، ولا أذلَّها الشقاء ، ولا أضناها النصب ، فى حرث الأرض ، وإدارة الساقية ، وهى بقرة مسلَّمة من العيوب ، فلا أذنها مقطوعة ، ولا ذيلها مبتور ، ولا جلدها مسلَّخ ، ولا عيب فيها .

وأنَّى لنا هذه البقرة ؟ لقد ضيَّقنا على أنفسنا وشدَّدنا ، فضيق الله وشدد علينا . وليس إلا بقرة اليتيم ، وما يقبل أوصياؤه أن يبيعوها ، وإنْ هم قبلوا فما يجزيهم إلا مِلْء جلدها ذهباً .

وحكمة الله ، أن يسلط عليهم أنفسهم ، حتى يكون ذلك فى مصلحة اليتيم وليخلق من الشر خيراً ، ومن التعسير تيسيراً . ومصائب قومٍ ، عند قوم فوائد .

فذبحوها ، وما كادوا يفعلون ، وما لبثوا أن ضربوا القتيل بلسانها ، حتى دبت فيه الروح ، وانبعثت فيه الحياة ، ونطق بأسماء قاتليه ، وهم أبناء عمه .

* * *

يا ويحكم يا بنى إسرائيل ، هل رأيتم بأعينكم قدرة الله ، التى أحيت الموتى ، وهل اقتنعتم بأن مَنْ ضيّق ، ضُيِّق عليه ، ومن شدَّد ، شُدِّد عليه ؟ وهل لانت قلوبكم ، وصفت نفوسكم ، ومِلْتم إلى الرجعة إلى الله ؟

كذلك يُحيِي اللهُ الموتى ، يوم البعث ، ويريكم آياته ، لعلكم تعقلون .

* * *

يا ويلكم يا بنى إسرائيل ، قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة ، لما يتفجَّر منه الأنهار ، وإنّ منها لما يشَّقَّق فيخرج منه الماء ، وإنَّ منها لما يهبِط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون .

قارون

وهذا قارون ، واحدٌ من أقارب موسى ، أغناه الله ، فأطغاه الغنى وأرْداه وبَغَى ، وإنَّ الإنسان ليطغى ، أنْ رآه استغنى ، وآتاه الله مالا كثيراً ، فكنزه فى الخزائن ، وكثرت لديه الخزائن ، حتى إن مفاتيحها كثرت كثرة أعجزت الأقوياء الأشداء عن حملها ، والاحتفاظ بها .

وآتيناه من الكنوز ، ما إنّ مفاتحه لتَنُوء بالعُصْبَةِ أُولِى القوّة .

* * *

وفرح قارون بغناه فرحاً شديدا ، فطغى وبغى . وتعالى على الناس ، وأهدر كرامتهم ، وسخَّر الفقراء وسَخِرَ منهم ، وحملهم على منافقته .

ولقد كان قارون إقطاعيًّا ، ضرب المثل الشنيع للإقطاع والإقطاعيين ، اغتنى من عرق الكادحين ، وسَمِن جسمه من دماء الفلاحين ، واكتظت خزائنه من هزال المساكين ، وعاش هو على فَنَاء الآخرين .

فأذلهم بفقرهم ، واستعبدهم بضعفهم ، وتكبر عليهم ، وتجبَّر فيهم ، وظنَّ أنه سيخرق الأرض ، ويبلغ الجبال طولًا .

* * *

وافترى فى غناه ، حتى لم يكتفِ بالقصر الواحد ، فبنى القصور ، ولم يكتف بالقصر المحدود الغرف ، فبنى قصر لابيرانت فى الفيوم ، بثلاثة آلاف حجرة ، عدا الأبهاء والشرفات ، والأفنية والأحواش ، والحدائق والبساتين ،

والأسوار والأنهار ، وما تزال إلى يومنا آثار قصره فى إقليم الفيوم ، تعثر بها معاول الحفارين ، من طلاب الآثار .

وها هى ذى بركة قارون ، ما تزال شاهدة على غناه ، مخلدة ذكراه .

* * *

فأين الناس من غناك ياقارون ، لقد ألّبت الناس عليك ، وألهبت أحشاءهم بكراهيتك ، وزوّغت أبصارهم ببريق ذهبك ، وحلّبْت لعابهم بما زخرت به موائدك .

ألا تراعى الله يا قارون فيهم ؟ ألا تجعل لهؤلاء الضعفاء المحرومين نصيبا من نعيمك ؟ ألا تحاسب نفسك على ضريبة غناك قبل أن يحاسبك مولاك ؟ ألا تدّخر شيئاً لأخراك مما أنت ممتّع به فى دنياك ؟

ألا تعرف ياقارون أن الإحسان إلى الفقراء ، إحسانٌ إلى الله ، لأنهم عيال الله ؟

ألا تجعل شكر نعمة الله عليك ، أن تخرج الزكاة ، وهى فرض عليك .

* * *

ويل لك يا قارون ، فقد قابلت فضل الله عليك ، بكفرانه وجحوده . وفجرت فى الناس ، وحرمت الجائع ، وأعريت الكاسى ، واستعبدت الأحرار وعِثت فى الأرض فساداً !

أما كان يكفيك ، أن تتمتع فى الدنيا ، بمطعم فاخر حلال ، وأن تلبس اللباس الفاخر الزاهى الحلال ، وأن تسكن المسكن العظيم الذى لا يُشعر البائسين بأنهم فى الأرض وأنت فى السماء ؟

إذ قال له قومه ، المخلصون له ، المحبُّون لمصلحته ، الخائفون على نعمته أن تزول بهذا التباهى ، والإغاظة للمحرومين ، قالوا له : لا تفرحْ يا قارون ، إن الله لا يحب الفَرِحين ، الذين استخفهم الفرح ، فطيَّر صوابهم ، وغيَّر نفوسهم ، وحجَّر عواطفهم ، فأرْداهم فى الهاوية .

وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ، ولا تنْسَ نصيبَك من الدنيا ، وأحسِنْ ، كما أحسن الله إليك ، ولا تبْغِ الفسادَ فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين .

* * *

يا وِقايَةَ الله من الغرور ! إذا ملأ الإنسان ، فنَسِى نفسه ، وحمَّلها فوق قدرها وطاقتها !

يا دَهَاك الله يا قارون ، حين تدَّعى أنك أعلم الناس أجمعين ، وأن غناك هذا كان لك من علمك .

وماذا كان مقدار علمك ، حتى خصَّك الله بكل هـذا الغنى من دون الناس أجمعين ؟ وحتى تقول : إنما أوتِيتُه على علمٍ عندى !

* * *

وحتى لو صحَّ ما ادَّعيتَ ، أنك عَلِمْتَ التوراة ، وحذقْت تهاويل علوم الكيمياء ، وفقِهْت أصول قوانين التجارة ، وتبحرَّت فى أقانيم الدهقنة ، وتعمقت فى دقائق العلم بكنوز يوسف ، حتى لو صحَّ كل هـذا ، فإن العلم الصحيح يا قارون ، يوسع العقل وينميه ، ويرقق القلب ويزكيه ، ويلطف

العاطفة ، ويهذب النفس الجامحة ، ويخفض شوكة الكبر ، ويمزق حجب الغرور ، ويقى صاحبه مصارع الحمق المغرورين .

* * *

ولو كنت تعلم يا قارون ، أن العلم من العقل والفكر ، وأن الفلاسفة والعلماء أوسع الناس عقلا وأرجحهم فكرا ، وأن عقلك الناصح كان يحتم عليك أن تشترى الناس من حولك بمالك ، وأن تأسرهم بإحسانك ، والإنسان عبد الإحسان ؛ لو كنت تعلم ، لعملت بما علمت !

* * *

ذلك هو العقل يا قارون ، الذى ينتج العلم ، فأين أنت من العلم ! حين تدعى أنك إنما أُوتيتَ الغنى لأنك عالم !

* * *

الحق ، أن هذا الادعاء ، كان مظهرا من مظاهر طغيان الغنى . وأن الله قد أهلك من قبلك من الأمم ، مَن هم أشدُّ منك بطشا ، وأكثر جمعا ، فما أغنى عنهم مالهم ، ولا حماهم بطشهم وقوتهم .

* * *

وذنوبك هذه ياقارون ، كلها محسوبة عليك ، تسبقك إلى الله بين يديك ، وهى مُثبتةٌ فى سجلِّك ، شاهدة على إجرامك ، وستؤخَذ بها أخذَ عزيزٍ مقتدر . يقول ربنا القادر ، ولا يُسْأَل عن ذنوبهم المجرمون .

* * *

وغريزة العناد ، وليدة ضيق الفكر ، وتصلُّبِ العقل ، ودليل على أن

المعاند ، فقد موهبة التفاهم والاقتناع ، وأنه انحط إلى مرتبة الحيوان الجامح الحرون ، الذى يهيج فى راعيه ، لا يبالى : هل آذاه ، أم آذى نفسه !

أو هو كالوَعْل ، تَيْس الجبل ، يظل ينطح الصخرة ، حتى يُوهِىَ قرنه ويدغدغه ، وتبقى الصخرة على حالها لم يَضِرْها شىء .

* * *

وقديما ركب العناد قابيل بن آدم ، فأهلكه ، وملأ ابن نوح فأغرقه . وطمس العناد على قلب فرعون فأرْداه وأهله أجمعين .

وكذلك قارون ، حين سمع النصيحة ، فازداد عُتوّا وغرورا ، وافتتانا بغناه ، وأصم أذنيه ، وركب رأسه ، ولبس أبهى حُلله ، وأزْهى حُليّه ، بالذهب ، وبأغلى من الذهب ، وركب أمهر الركائب ، واستصحب أعوانه الشداد ، أربعة آلاف غنى أو يزيدون ، وخرجوا فى موكب حاشد ، ليغيظ التاعسين البائسين .

فخرج على قومه فى زينته ، وفى صَلَفه وكبريائه ، وصعَّر خده للناس ، ومشى فيهم مِشية المرح والخيلاء ، حتى فتن الناس ، وختلهم عن إيمانهم ، وعلّقهم بمفاتن دنياهم ، وأنساهم ربهم ، وشغلهم عن آخرتهم .

قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، يا ليت لنا مثلَ ما أُوتِىَ قارون ، إنه لذو حَظٍّ عظيم .

* * *

وجنى على نفسه بعناده ، وجنى على الناس ، بأنْ شغل بالهم ، وبلبل أفكارهم ، وأسال لعابهم ، وحرّقهم بنار التشوق والتلهُّف على مثل غناه ،

وملأهم بالحسرة والأسى على ما هم فيه من فقر وحرمان ! وبثّ فيهم روح التمرد على ما قسمه الله له ولهم من غنى وفقر .

نحن قسمنا بينهم معيشتَهم فى الحياة الدنيا ، ورفعْنا بعضَهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سُخْرِيًّا ، ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون .

* * *

وقال الذين أوتوا العلم ، واليقين ، ومُنِحُوا الرضى والتسليم ، ورُزقوا القناعة ، وحماهم الله شر الطمع والجشع ؛ قالوا للذين زاغت أبصارهم ، وتعلقوا بخيط الأمانى ، وَيْلَكُم ، ثوابُ الله خيرٌ لِمَنْ آمن ، وعمِل صالحا ، ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون .

* * *

وإنَّ الله ليُمْلِى للظالم ، ويمدّ له حبال عِصيانه ، ويُكْثِر عليه من مباهج حياته ، ويُغْريه بحُلو آمانيه وآماله ، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه .

وقد أخذ الله قارون بالخسْف ، فاندكَّ قصره وقصوره ، وغاصتْ فى الأرض خزائنه ، وتبخَّرتْ كبخار الماء أمواله ، وراح سلطانه كما يروح الليل ، وارتجفت القلوب من هول ما وقع عليه ، وتقلَّصتْ وَجَنَات الناس فزعاً ورعبا ، اعتبارا بما حلَّ به .

* * *

فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له مِن فِئَةٍ ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنَّوْا مكانَه بالأمس ، يقولون :

وَىْ ! كأنَّ اللهَ يبسُط الرزق لمن يشاء ، ويَقدِر ، لولا أن منَّ اللهُ علينا ، لَخَسَفَ بنا . وَىْ ! كأنه لا يُفلِحُ الكافرون .

* * *

قال ربُّنا ، ذو البطش الشديد :

تلك الدارُ الآخرة ، نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبةُ للمتقين .

مَن جاء بالحسنة ، فله خيرٌ منها ، وهم مِن فزع يَوْمَئذٍ آمنون .

ومَن جاء بالسيئة ، فكُبَّتْ وجوهُهُم فى النار ، هل يُجْزَوْن إلا ما كانوا يعملون ؟ .